أوراقٌ

في السيرةِ و الأخلاقِ

حميد بن خيش

نوع العمل: مقالات إسلامية

اسم العمل: أوراق فى السيرة و الأخلاق

اسم المؤلف: حمدي بن خيبش

الناشر: حروف منثورة للنشر الإليكترونى

الطبعة: الأولى فبراير 2016

تصميم الغلاف: مروان محمد

تدقيق لغوى: علياء عبد الغنى

تفضلوا بزيارة موقعنا حروف منثورة للنشر الإليكترونى من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://herufmansoura2011.wix.com/ebook

كما يمكنكم متابعتنا من خلال صفحتنا الرسمية على الفيس بوك من خلال الضغط على الرابط التالى:

http://facebook.com/herufmansoura

كما يمكنكم مراسلاتنا بأعمالكم على الإيميل التالى:

Herufmansoura2011@gmail.com

دار حروف منثورة هي دار نشر إلكترونية لخدمات النشر الالكتروني ولا تتحمل أي مسئولية تجاه المحتوى الذي يتحمل مسئوليته الكاتب وحده فقط وله حق استغلاله كيفما يشاء

أوراقٌ

في السيرةِ و الأخلاقِ

حميد بن خيبش

الفهرس

توطئة..... 7

قراءة في مكاسب صلح الحديبية..... 9

أَقْرئ خديجة السلام..... 20

درس المؤاخاة..... 29

هذا الأمين ..رضينا !..... 36

الإسراء و المعراج : هل تعوزنا قراءة جديدة ؟ 44

البناء القيمي في السيرة النبوية 55

السيرة النبوية و هجمة الطابور الخامس..... 63

سيرة أم ..مسيرة ؟..... 71

على تخوم حراء..... 77

أبـــو رغـــال 85

رسائل من بدر..... 92

عالمية الرسالة في ميزان الاستشراق.....100

رسائل ..إلى الروضة الشريفة.....107

أشواق المرأة المسلمة 114

البـــذاءة 121

الحياء ..لبنة حضارية.....127
القارونية.....135
شَرَك الرياء.....142
عبد القطيفة.....149
عولمة التخنث.....155
فضيلة التثبت.....161
نعم .. فقدنا الرضا.....167
فوضى الحريات.....173
التبسم .. زاد دعوي.....179
أكلما اشتهيتم ..اشتريتم ؟.....185
رذيلة التبرم.....192
أخلاق المسلم في عالم متغير.....199
الدعاء.. نحو فهم متجدد.....206
جبريون ورب الكعبة !.....212
و أحسنوا.....219
حامل القرآن.....226

توطئة

الحمد لله الباريء المصور الخلاق , المبتدئ بالنعم قبل الاستحقاق , و الصلاة و السلام على نبي الصدق المبعوث ليتمم مكارم الأخلاق وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد :

فهذه سلسلة مقالات سعيت من خلالها جاهداً إلى تجديد النظر في بعض أحداث السيرة النبوية , وأحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم لتسليط الضوء على ما يرزح تحته واقعنا المعاصر من مظاهر وصور لانحراف السلوك و الفهم. إن حياة الرسول صلى الله عليه و سلم هي النموذج الأسمى لغرس القيم , وتكوين شخصية المسلم المعاصر وتوجيه مساره الخلقي ,إذ لا نعلم في تاريخ الإنسانية كلها سيرة لنبي أو عظيم لقيت عناية وحفاوة ورصداً لأدق التفاصيل كمثل الذي لقيته السيرة النبوية على يد الرعيل الأول من الصحابة ثم تابعيهم من العلماء و المؤرخين . هذه الميزة الفريدة ترجع بالأساس إلى كون الحياة المحمدية هي المدخل العملي و التنفيذي لمبادئ الشريعة السمحة, وهي بوابة الاتباع الحق لمن أسلم وجهه لله امتثالا لقوله تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله و يغفر لكم ذنوبكم و الله غفور رحيم) آل عمران 31 .

و المتأمل في أفعال الرسول صلى الله عليه و سلم ومواقفه، يُدرك حرصه الشديد على بناء الشخصية المسلمة وفق منهج متوازن يستجيب للفطرة السليمة , و يُحفز الإرادة الحرة على العطاء والإبداع. ولذلك تشكل السيرة النبوية سجلاً تربوياً حافلاً بالقيم و المعاييروالمهارات الكفيلة بإحداث نقلة نوعية في الكيان الإنساني.

ما أحوج مجتمعاتنا اليوم إلى قراءة متجددة للكتاب و السنة , تنطلق من النص لاستيعاب الواقع و التماس الحلول, وتتحرر بها من سلطان التقليد و التعصب المذموم .

أسأل الله تعالى أن يتقبل مني هذا الجهد المتواضع وينفع به سائر المسلمين , وأن يكون خالصا لوجهه سبحانه وينفعني به يوم الدين.. إنه سميع مجيب .

المغرب

رمضان 1436هـ

و الصلح خير ..

رجوع للفهرس

قراءة في مكاسب صلح الحديبية

إذا كان للثورةِ فلسفتها ,وللغضبةِ المُضرية شعراؤها ,فإن للصلح مقصده الأسنى الذي يتخطى حدود كل فلسفة وشعر ! ورغم أن تاريخ الأمم حافل بملاحم الصدام التي أُهريق فيها الدم لأجل قضية عادلة , وفي أحيان كثيرة إرضاء لغرور حاكم , إلا أنه لم يعدم وقفات جليلة يستعيد فيها موكب الإنسانية رشده وتوازنه , وترجح كفة النبل أمام كل المطامح الضيقة و المكاسب الرعناء !

وصلح الحديبية يُعد بحق صفحة مشرقة في تاريخ الأمة الإسلامية , وحجة داحضة للافتراءات التي دأب المستشرقون على الترويج لها , والزعم بأن الجماعة المسلمة الأولى سلكت سبيل القهر و التسلط في حمل القبائل و الدول المجاورة على اعتناق الإسلام .

انقضت ست سنوات من الجهاد العسكري مخلفة وراءها حالة من الانسداد و العداء السافر .ست سنوات لم يتقابل خلالها المسلمون والقرشيون إلا في ساحة المعركة.طرف يسعى لردم العقائد الفاسدة , والعودة بالناس إلى منبع التوحيد الصافي, وطرف آخر يُدافع عن صيته وتجارته, ويتواطأ مع الجبهة اليهودية للفتك بأبناء عمومته .

في هذا المناخ المتوتر يعلن النبي صلى الله عليه وسلم عزمه التوجه إلى مكة لأداء العمرة , فيصحبه ألف و أربعمائة من المؤمنين الواثقين , بينما يتلكأ الأعراب ومن شاكلهم من المنافقين . إنها في رأيهم عمرة المغرم لا

المغنم,وقريش لن تتوانى عن صد المسلمين بل واستئصال شأفتهم ذبا عن مهابتها !

يبلغ الموكب " ثنية المرار" , على بعد أميال قليلة من مكة , فتبرك "القصواء" [1] إيذاناً ببدء التدبير الإلهي الصرف لمحطة فاصلة في مسار الدعوة الإسلامية , ويكشف النبي صلى الله عليه وسلم عن رغبته العميقة في السلم , والتأسيس لعلاقة هادئة بقوله "لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألوني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها " , ويبلغ اللين النبوي إزاء تشدد مبعوث قريش, أثناء كتابة بنود الصلح , حدا يُثير اندهاش الصحابة , وتنفلت له الأعصاب !

هذا "عمر بن الخطاب"- رضي الله عنه - يعترض قائلا للرسول الكريم :

- ألست نبي الله حقا ؟

- فيجيب النبي صلى الله عليه وسلم : بلى !

- قال : ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

- قال : بلى !

- قال : فلمَ نُعطى الدنية في ديننا ؟

- قال : إني رسول الله , ولست أعصيه , وهو ناصري " [2]

نعم , إنه رسول الله !

تلك حقيقة لم تغب بكل تأكيد عن أذهان الصحابة , لكن ست سنوات من الإيقاع العسكري المتلاحق , والحرص على الشورى كمبدأ في تدبير شؤون الجماعة المسلمة رسخ في الأذهان قناعة مفادها أن عمل النبوة مشروط بموافقته لمقاييس الإدراك البشري .فكان من الطبيعي أن يندهش المسلمون لإصرار النبي صلى الله عليه وسلم على إمضاء هذا الصلح , وتركه الشورى على غير عادته . وهو ما يؤكده الدكتور محمد البوطي بقوله " إن أمر هذا الصلح كان مظهراً لتدبير إلهي محض تجلى فيه عمل النبوة و أثرها كما لم يتجل في أي عمل أو تدبير آخر , فقد كان نجاحهُ سراً مرتبطاً بمكنون الغيب المطوي في علم الله وحده , ولذلك انتزع – كما قد رأيت – دهشة المسلمين أكثر مما اعتمد على فكرهم وتدبيرهم , ومن هنا فإنا نعتبر أمر هذا الصلح بمقدماته ومضمونه ونتائجه من الأسس الهامة في تقويم العقائد الإسلامية وتثبيتها " [3] .

زالت الدهشة بعد أن لاحت ثمار الهدنة, وكشفت الأيام اللاحقة ما انطوى عليه الصلح من خير كثير, كما تبدى لكل ذي عقل أن تحصيل هذه المكاسب لم يكن منوطا بقوة السلاح, بل بتدبير رباني يتخطى حدود البشرية العادية, وهو ما نزلت سورة الفتح لتوكيده !

فما هي إذن أهم المكاسب التي جناها المسلمون من صلح الحديبية ؟

أ- الإعتراف الرسمي بالإسلام :

إن موقف قريش حيال الإسلام و المسلمين شاهد حي على ما يمكن أن يقود إليه التعصب الأعمى من انغلاق فكري, وتخبط في الرأي, واحتكام إلى الهوى في تقييم الأشياء و الأحياء !

فقريش التي ظلت عقوداً تشهد لمحمد صلى الله عليه وسلم بالصدق و الأمانة وسداد الرأي, تنحازغداة الجهر بالدعوة إلى حميتها فتنعته بالكذب و الكهانة و الجنون, وتذيق ألوان العذاب لضعفاء لاذنب لهم سوى انبثاق بذرة التوحيد في قلوبهم ! و حتى حين يُخالف اليهود معتقدهم, ويشهدوا لقريش بأن وثنيتها خير من الإسلام (4) لا يتنبه عقلاؤها لما ينطوي عليه الموقف اليهودي من مغالطة على اعتبار أنهم حملة راية التوحيد قبل الإسلام !

غير أن صلح الحديبية انتزع من قريش ما ظلت سنوات تتهرب من الإقرار به وهو : أن الإسلام دين , وأن لأتباعه الحق في أداء ما افترضه عليهم من شعائر في بيت الله الحرام .وأن لمحمد صلى الله عليه وسلم من المكانة و المهابة في صدور أصحابه ما يجعلهم منضبطين لما يتخذه من قرارات , وما يعقده من مواثيق .

إنه اعتراف حرر بيت الله الحرام من الوصاية الجائرة, وكان له أثر واضح في نفوس القبائل المجاورة التي اعتادت الخضوع لسطوة قريش على مكة .

ب- انقسام الجبهة القرشية :

وقد لاحت بوادره في موقف "الحليس بن علقمة" سيد الأحابيش الذي انتدبته قريش لمفاوضة المسلمين , فما إن دنا من معسكر المسلمين و رأى الهدي حتى عاد مسرعاً قبل أن يصل إلى الرسول , وأخبرهم أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يأتِ لقتال وإنما جاء زائراً للكعبة, فقالوا : إنما أنت أعرابي لا علم لك , فاستشاط غضبا وصاح : يا معشر قريش و الله ما على هذا حالفناكم و لا على هذا عاقدناكم , أَيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظماً له ؟ و الذي نفس الحليس بيده لتُخلن بين محمد وبين ماجاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد , فقالوا : مه, كف عنا يا حليس، حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى له " (5)

ثم تلاه دخول خزاعة في عقد المسلمين و إيثارهم الانضمام لحلف محمد صلى الله عليه وسلم, وهو ما مثل تصدعا خطيرا لجبهة قريش و إضعافا لمركزها الحربي.

ج- إسلام العقلاء :

من ثمرات هذا الصلح كذلك أنه رفع غشاوة العصبية عن أبصار و بصائر العقلاء من قريش, وهيأ لهم الفرصة لمراجعة مواقفهم, يقول الكاتب محمد فريد وجدي : " كان لا بد من وجود هدنة يلقى فيها السلاح جانباً مدة كافية ليتمكن العقلاء من الناحيتين من التقابل و التفاهم, والأخذ و الرد و الإقناع و الاقتناع حتى يكون في الجماعة رجال كثيرون انضموا إليها منقادين لأصوات ضمائرهم, لا مستسلمين لعامل المنفعة " (6). فخالد بن الوليد أو

عمرو بن العاص أو عثمان بن طلحة , وهم ممن أسلموا في فترة الصلح , ليسوا من طينة الرجال الذين يُذعنون للسيف , ويغيرون معتقدهم خوفا من البطش أو طمعها في الغنيمة .فشاء التدبير الإلهي أن ينقادوا لصوت العقل , ويكون إسلامهم تعزيزاً للقيادة الإسلامية في بداية احتكاكها بالجبهة البيزنطية في الشمال .

د- شل النفوذ الاقتصادي لقريش :

كانت هدنة الحديبية محطة تاريخية فاصلة تتحدد من خلالها سمات المرحلة المقبلة , وهو ما لم تتنبه له قريش التي أفقدها الطيش و التعصب وعيها , فكان مطلبها الأساس " ألا يحج المسلمون عامهم هذا " بدل أن تحرص على تأمين وجاهتها الاقتصادية !

فلم تكن التجارة هي المورد الوحيد لسادة مكة , بل إنهم كانوا يجنون مبالغ طائلة من عائدات الضرائب التي تدفعها القبائل الوافدة لأداء مناسك الحج .وبلغ بهم التشدد أن منعوا الحجاج من التزود بطعام غير طعام مكة , أو الطواف في ثياب غير ثيابها , ومن لم يجد ما يقتني به الثوب يطوف عرياناً (7)

لكن عند كتابة بنود الصلح لم تشترط قريش أن يدفع المسلمون هذه الإتاوة , وهو ما عُد خطأ فادحاً " فعندما طاف المسلمون حول الكعبة بعد عام دون وضع هذه الإتاوة تنبهت القبائل الأخرى ..إذن فقريش ليست الصاحبة

الوحيدة للكعبة , وإلا كيف استطاع المسلمون الآتون من المدينة الطواف حول الكعبة دون وضع هذه الإتاوة ؟ لذا فقد أتى الجميع في السنوات المتعاقبة إلى البيت الحرام دون عراقيل " (8)

أما العامل الثاني فهو الإحساس المتزايد بالعزلة خصوصاً بعد انتشار الإسلام في اليمن , مما يعني أن السطوة التجارية لقريش دخلت مرحلة الإنكماش ونضوب الموارد , وبالتالي التبعية الحتمية للحراك الإقتصادي في المدينة !

تبين لقريش إذن أن الهدنة كانت وبالاً عليها، وأن لا مناص من نقض الصلح و العودة إلى ساحة المعركة , فحققت بذلك مكسبا إضافياً للمسلمين وهو التعجيل بفتح مكة , وإعلاء راية التوحيد في أشرف بقاع الأرض !

إن بعض دارسي السيرة سواء من المستشرقين أو من دعاة العقلانية الفجة سعوا جاهدين لنفي التأييد الإلهي لتصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم , وجردوا عمل النبوة من أي صلة بالسماء .فمنهم من يتحدث عن العبقرية و الامتياز الذاتي , ومنهم من يحتج بالدراية المسبقة بالواقع السياسي و الاجتماعي لجزيرة العرب , و آخرون ينسبون الفضل للخبرات المستلهمة من تعاليم الأديان السابقة و لكن ما إن تستوقفهم أحداث صلح الحديبية حتى يُقروا بعجزهم عن فهم ما جرى .يُعلق المستشرق ر.ف.بودلي على هذا الحدث بقوله " أن يرغب القرشيون أن يُعاهدوا محمدا , وأن يعترفوا به كإنسان يستحق الاهتمام , وأن يعتبروه حاكما لجماعة عربية , كل ذلك كان

شيئا خارج الظنون " وهو بالفعل أمر خارج الظنون لمن كرهوا أن يبتغوا بفكرهم سلما للسماء !!

المصادر

---

(1): ناقة النبي صلى الله عليه وسلم

(2) : متفق عليه

(3) : محمد سعيد رمضان البوطي .فقه السيرة .دار الفكر سورية .1991 ط10. ص 345-346.

(4): يقول المستشرق إسرائيل ولفنسون في كتابه " تاريخ اليهود في بلاد العرب" (كان من واجب هؤلاء ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش , وألا يُصرحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التوحيد الإسلامي ولو أدى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطالبهم لأن بني إسرائيل الذين كانوا مدة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين و الذين نُكبوا بنكبات لا تُحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتى من الأدوار التاريخية كان واجبهم أن يُضحوا بحياتهم وكل عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين .هذا فضلا عن أنهم بالتجائهم إلى عباد الأصنام إنما كانوا يُحاربون أنفسهم ويُناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام وبالوقوف منهم موقف الخصومة).

(5) : رواه ابن إسحاق في حديث الحديبية.

(6) : محمد فريد وجدي .السيرة النبوية تحت ضوء العلم و الفلسفة .الدار المصرية اللبنانية 1993.ط1.ص238 .

(7): راجع صحيح السيرة النبوية للشيخ محمد ناصر الدين الألباني .

(8) : محمد فتح الله كولن.النور الخالد.دار النيل للطباعة و النشر .2007. ط1.ص 384

(9): ر.ف.بودلي.الرسول حياة محمد .مكتبة مصر.1989.ص252

رجوع للفهرس

أَقْرئ خديجة السلام

كلما دنا الاحتفال باليوم العالمي للمرأة إلا و سارعت الهيئات الحكومية و المنظمات الحقوقية إلى الإشادة بالإجتهاد القضائي, و بترسانة القوانين و التشريعات التي صُدِق عليها لحماية المرأة من كل أشكال العسف و القهر و التمييز . بل و نشهد سباقاً محموماً بين الدول للإشادة بواحات التكريم التي تحيا فيها نساؤها وسط صحراء الذكورة و الأعراف البالية . لكن ما إن تغرب شمس هذا اليوم حتى تثار الأسئلة مجدداً حول صدى هذه القوانين و التشريعات في واقعنا اليومي , وأثرها على النسق القيمي الذي يحكم العلاقة بين الجنسين .

إن الأصل في القوانين أن تصون الحد الأدنى من الأخلاق الذي يضمن بقاء المجتمع الإنساني , بينما تتحمل الأسرة و المدرسة عبء التنشئة الاجتماعية التي بمقتضاها يعزز الأفراد رباطهم الإنساني ويتمثلون , ومن ثم يندمجون في , نظام قيمي يضفي على الوجود معناه و مبناه و إيقاعه المتوازن . وفي القرآن الكريم ما يؤكد على تلازم التشريع و الأخلاق لتقويم الإنحراف وتمتين النسيج الاجتماعي . ففي سورة الطلاق نلمس حرص الإسلام على مزج التشريعات بالتربية الأخلاقية , و الأحكام العملية بالآداب النفسية مثل " سيجعل الله بعد عسر يسرا " و " ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا " و " من يتق الله يكفر عنه سيئاته و يعظم له أجرا " و الويل للبيوت , يقول الشيخ محمد الغزالي , إذا تركت منطق الدين و الأخلاق و اتجهت إلى القانون و القضاء !

وبما أن بلوغ الرؤية الإسلامية المثلى للعلاقة الإنسانية يستلزم كيانا حيا متحركاً يترجم مبادئها على أرض الواقع , فقد حضنا النص القرآني على التأسي و الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم المبعوث رحمة للعالمين . و جعل من التربية بالقدوة أسلوباً فعالاً لترجمة الحقيقة الإسلامية و شحذ العقول و الأرواح بذوات تُمكنهم من التشرب الصحيح لأحكامه وتوجيهاته . فالمنهج , برأي الأستاذ محمد قطب , مهما اتسم بالإحاطة و البراعة و الشمول يظل حبرا على ورق , يظل معلقا في الفضاء مالم يتحول إلى حقيقة واقعة تتحرك في واقع الأرض ; ما لم يتحول إلى بشر يترجم بسلوكه و تصرفاته و مشاعره وأفكاره مباديء المنهج ومعانيه . عندئذ فقط يتحول المنهج إلى حقيقة , يتحول إلى حركة , يتحول إلى تاريخ [1] .لذا توفر السيرة النبوية اليوم بشخوصها و أحداثها فضاءً خصباً لاستلهام الدروس و تجديد الصلة بجوهر الدين ومنابعه الثرة .

ومادام الحديث هنا متصلا باليوم العالمي للمرأة , و باستعراض المنجزات الحقوقية التي تسهم في تحسين ولوجها للحياة العامة و إشراكها في مسلسل النهضة و التنمية , فلا بأس من إطلالة سريعة على نموذج مشرق وَسَمَ بدايات الدعوة المحمدية بميسم خاص , و أثبت أن دور المرأة في صنع الأحداث الكبرى و التحولات الإنسانية العميقة لا يقل في شيء عن دور الرجل . إنها "خديجة بنت خويلد" رضي الله عنها , أم المؤمنين و سيدة نساء العالمين .

لماذا خديجة بنت خويلد ؟

لأن الإطار الذي يتم من خلاله استعراض أحداث السيرة , سواء تعلق الأمر بالمناهج التعليمية أوالمنابر الإعلامية المختلفة , يُخلف في الأذهان صورة مشوشة ومفككة قوامها : سيدة ثرية في الأربعين تُعجب بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم و أمانته , فتتزوج به و تنجب منه بنين و بنات , ثم تؤازره في بداية دعوته حتى تلقى بارئها ! إن صورة بهذا الاختزال لا يمكن أن تحفز الرغبة بالإقتداء , فغاية ما تبلغه أن تستقر في الوجدان كحقيقة صوفية منعزلة عن واقع الحياة !

ثانيا لأن المرويات و الأخبار التي تمدنا بها كتب السيرة و المصادر التاريخية عن حياة السيدة خديجة رضي الله عنها لا تشفع للكتابة الإسلامية المعاصرة كسلها عن السبر الجاد لأغوار هذه الشخصية , و القراءة المتجددة للأحداث و الوقائع بشكل يثري الزاد الدعوي , و يعيد النظر في الدور الخطير الذي لعبته السيدة خديجة رضي الله عنها من زوايا متعددة .

أول ما يسترعي الانتباه في سيرة القرشية الطاهرة أن وضع المرأة في شبه الجزيرة العربية لم يكن بالسوء الذي إنزلقت إلى وصفه بعض الأقلام , ففي أخبار العرب و قصصهم ما يحيل على مقام كريم للمرأة أهلها لإبداء الرأي في الشؤون العامة , و التدخل لنزع فتيل الأزمات . وحسبك في هذا الباب موقف زوجة الحارث بن عوف المري لما هم بالدخول بها فقالت : أتتفرغ للنساء، و العرب يقتل بعضهم بعضا ؟! - تقصد حرب بني عبس و بني

ذبيان – قال : وبماذا تشيرين ؟ قالت : اخرج إلى هؤلاء القوم فأصلح بينهم ثم ارجع إلي ; فعرض الأمر على خارجة بن سنان فاستحسن ذلك , ونهض كلاهما بهذا الأمر حتى تم الصلح و دُفعت الديات . لا ننكر طبعا وجود بعض الحمقى ممن أهانوا النساء ووأدوا البنات خشية الفقر أو العار لكنها حوادث فردية لا تجيز التعميم المُخل .

الأمر الثاني : موقفها حين أنبأها الرسول صلى الله عليه وسلم بخبر الوحي و أردف قائلا :" لقد خشيت على نفسي " فقالت : " كلا والله ما يخزيك الله أبدا , إنك لتصل الرحم , و تحمل الكل , وتكسب المعدوم , وتقري الضيف , وتعين على نوائب الحق , وتصدق الحديث , و تؤدي الأمانة ".

هل هو مشهد يحيل فحسب على زوجة تهديء من روع زوجها , أو تخفف من وقع روائع الجلال التي هزت كيانه في غار حراء ؟

لا ! إننا أمام سيدة حباها الله من صفات الفطنة و بعد النظر و سلامة الفكر ما هيأها لاستقبال نبأ عظيم . فلم تظهر الهلع أو الاستنكار , و لم تبادر بإثارة الشكوك أو صوغ الاحتمالات , و إنما أعلنت أن الخط الفاصل بين أخلاق محمد التي تشكل "المثال" و أخلاق المجتمع القرشي لن يأت إلا بخير . إن هذه الشهادة في حق زوج كمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم دليل على البون الشاسع بين سيرته الشريفة , و حياة غيره من العظماء الذين احتفت بهم الإنسانية . فكثير منهم عجزوا عن انتزاع ثقة زوجاتهم أو الحظوة بشهادة كشهادة خديجة رضي الله عنها , بل إن منهم من لم تتورع

زوجته عن فضح طويته وسوء أخلاقه في مذكرات شخصية أو على صفحات الجرائد !

الملفت للنظر كذلك في هذه الكلمات الوجيزة المنتقاة , أنها تؤلف استدلالاً عقلياً و قياساً من أبدع الأقيسة و أجملها . يقول السيد عبد الحميد الزهراوي في مؤلفه القيِّم (خديجة أم المؤمنين) : " يخرج المتأمل في حديث هذه السيدة بأن النوع الإنساني محل لعظيم تجليات رب الأنواع كلها . و لذلك يحب كل ما يؤدي إلى تسامي هذا النوع و يخلق الأسباب لذلك و يأخذ بيدها لتتغلب على ما أظهره بحكمته التي لا نعلمها من أضدادها .

و يخرج من كلامها بأن الله عز و جل مطلع على أعمالنا و مجاز عليها , وأنه يحب منا أعمالاً و يكره أخرى , وأن الذي يحبه منا على حسب تفكيرها هو الاستقامة ومساعدة بعضنا لبعض و لا سيما مساعدة الضعفاء .

و يخرج منه أن من يفعل الخير لا يأتيه إلا الخير . و الخير الذي نعبر عنه بهذا اللفظ قد جاء في عبارة السيدة بتفصيل أعمال كلها من باب مساعدة الإنسان للإنسان , فهذه المساعدة في نظرها كل خير أو هي الخير , فهل يكافيء الله فاعل الخير بغير الخير ؟ إن هذا على حسب تفكيرها لا يمكن أن يحدث.

و نتيجة قياسها أن هذه رسالة ربانية فيها الخير لا الضير , وأن الله عز و جل سيتفضل بتأييد هذا المأمور في حمل هذه الأمانة على ثقلها و صعوبة تأديتها لقوم ينكرونها و لا يعرفونها " (2)

الأمر الثالث : أنها كانت سيدة مجتمع تتحدد فيه مكانة الفرد بالنظر إلى حجم نشاطه التجاري , و تحتكم شبكة علاقاته الاجتماعية للعامل الاقتصادي , لكن لم يُؤثر عنها ما يدل على إيلائها أي اعتبار لهذه المكانة أو لذاك الثراء وهي تواجه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تبعات الدعوة في أخطر مراحلها. فقد كفته هم المعيشة حين انصرف للتحنث في غار حراء , و آثرت حصار الشِعب معه تاركة ثروتها بين يدي المشركين . إنه موقف لم تحكمه التبعية الزوجية بقدر ما يحكمه الاقتناع بأنها رسالة تستحق البذل و صبر الأكرمين !

وفي شِعب بني هاشم يبلغ الحصار حدا رثاه الخصوم , لكن خديجة رضي الله عنها أبت إلا أن تشارك زوجها مغرم الجهاد المُر , و تبرهن لمن حولها ومن بعدها أن المرأة يومها كالرجل ; جزء من النواة الصلبة التي حملت عبء الرسالة في أخطر مراحلها .

إن الدعوة إلى بحث متجدد في ثنايا السيرة النبوية عن الحضور الفاعل للمرأة يُسهم و لاشك في تخليق صيغ التدافع التي يُتوخى منها اليوم تثبيت حقوق هُمشت , و التخلص من عوائد و أعراف تنحاز لذكورة جائرة . وبغير هذا التخليق فإننا سنضل الطريق , يقول عباس محمود العقاد , فيركب كل

من الجنسين رأسه في اللجاجة و الشحناء : حقي و حقك , وكفايتي و كفايتك , و سلاحي و سلاحك , و انتصاري و هزيمتك , على النحو الذي سبقنا إليه الغرب القديم و الحديث غير محسود على سبقه ! [3]

المصادر

1- محمد قطب : منهج التربية الإسلامية ج1 . دار الشروق . القاهرة 1993 . ص 180

2- السيد عبد الحميد الزهراوي : خديجة أم المؤمنين . دار الهلال . القاهرة 1962 . ص 187-188

3- عباس محمود العقاد : المرأة في القرآن . المكتبة العصرية . بيروت د.ت . ص 137

رجوع للفهرس

درس المؤاخاة

ما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى تحريك مشاعر الأخوة الإيمانية , واستلهام العظات و الدروس من الهدي االنبوي الشريف . خصوصا في ظل ما خلفه الربيع العربي من تدافع إيديولوجي و سياسي تجاوز سقف الإختلاف المشروع, ليلهب روح الخصام و التنافر القبلي و الحزبي بين أبناء الملة الواحدة .

فحين آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين و الأنصار , في تجربة فريدة لم تشهد الإنسانية نظيراً لها , لم يكن فقط يُدبر أزمة اقتصادية مؤقتة نشأت عن الازدحام السكاني , بل كان يترجم مباديء الإسلام في قلوب وعقول أصحابه إلى وقائع عملية .وينشيء مفهوما للأخوة ينهل من معين التوجيه الرباني , لا من كدر القبيلة و الدم .. و الأسلاك الشائكة !

تمت المؤاخاة إذن في دار "أنس بن مالك" بين تسعين رجلا , نصفهم من المهاجرين و النصف الآخر من الأنصار .وتضمن العقد شروطاً نافذة نصت على المواساة و التوارث دون أولي الأرحام ,فأكسب النبي صلى الله عليه و سلم تلك الأخوة بعدا عمليا لا يقف عند حدود الثرثرة اللفظية . يقول الشيخ محمد الغزالي في توصيفه لهذه التجربة " ومعنى هذا الإخاء أن تذوب عصبيات الجاهلية فلا حمية إلا الإسلام , وأن تسقط فوراق النسب و اللون و الوطن .فلا يتأخر أحد و لا يتقدم إلا بمروءته وتقواه .وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً لا لفظاً فارغاً , وعملاً يرتبط بالدماء و الأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة و لا يقوم لها أثر " [1]

وككل حدث تاريخي تسبقه ممهدات وعوامل موضوعية , فإن العهد المكي للدعوة توافرت فيه مزايا الفضاء المناسب لتربية النفوس وتزكيتها .حتى إذا حصل الإعداد الكامل , وتشرب القلب معاني الولاء و البراء , وانحاز المسلم إلى جانب العقيدة , أمكن آنئذ بناء الجماعة الإسلامية في فضاء مغاير , وفي بيئة اجتماعية تغيب فيها وشائج القرابة و الدم و العصبية !

إن صنوف الحرمان و الإيذاء النفسي و البدني التي لاحقت المسلمين قبل الهجرة صهرت أرواحهم في بوتقة الأخوة الإيمانية , بعد أن رجحت صلة العقيدة على ما دونها من الصلات .كان الامتحان عسيرا : أن يتحدى الإبن أباه , و العبد سيده , وتتجلد العصبة المؤمنة أمام الحصار و التجويع . لكن المنهج النبوي في تربية الأفراد , وترجمة معاني القرآن إلى واقع حي ومتحرك , هيأ لهذه الجماعة المستضعفة نوعا من التسامي الوجداني , و التماسك وفق مبدأ التآخي العام الذي أكده القرآن منذ بدء الدعوة . وهذا ما انتبه له الشيخ الغزالي بقوله " الإخاء الحق لا ينبت في البيئات الخسيسة , فحيث يشيع الجهل و النقص والجبن و البخل و الجشع , لا يمكن أن يصح إخاء ! وتترعرع محبة .ولولا أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جُبلوا على شمائل نقية , واجتمعوا على مباديء مرضية ما سجلت لهم الدنيا هذا التآخي الوثيق في ذات الله "[2]

لكن , إذا اعتبرنا موقف المهاجرين في حادثة المؤاخاة ثمرة للمنهج التربوي القرآني و النبوي , فبماذا نعلل إذن ما أبداه الأنصار من استقبال

فريد , وتأكيد على الأخوة بالتنازل حتى عن فائض الزوجات لمن جاء إلى يثرب بغير زوج ؟ إن ما أبدوه من مسارعة لإيواء إخوانهم , ومقاسمتهم كل ما يملكون , بل وإيثارهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة , لهو سلوك لا يصدر إلا عن نفوس تشربت الإيمان حتى فنيت فيه !

هل ننسب الأمر للتربية النبوية , وهم الذين لم يجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم سوى لحظات معدودة تحت جنح الظلام , لما قدموا لبيعة العقبة الثانية ؟

أم ننسبه لرغبتهم في الإستعلاء على العرب بينما هم يأوون جماعة مستضعفة من المسلمين ؟

بل حتى التعليل الذي تسوقه كتب السيرة بشأن ما أذاعه اليهود , وتلقفته أسماع الأوس و الخزرج, عن قرب ظهور نبي في بلاد العرب يثير في الأذهان تساؤلا حادا مفاده : أين كانت القبيلتان طوال فترة الدعوة بمكة ؟ ولم لَم تسارعا لنصرته تصديقا منهما لنبوءة اليهود على الأقل ؟!!

إن التبريرات العقلية تقف عاجزة عن إدراك سر التحول في موقف الأنصار , من سعي للتحالف مع قريش ضد أبناء عمومتهم من الخزرج , إلى نصرة للجماعة المسلمة المستضعفة , وإيواء و إخاء عز لهما نظير!

لا نملك سوى الإقرار بما خلص إليه أحد الباحثين , وهو أننا أمام آية إلهية بثت في روع القبيلتين هداية جماعية لتكريم النبي صلى الله عليه وسلم ,

وتثبيت الذين آمنوا معه "وكم في السموات و الأرض من آيات يتخيلها الجاهلون أمورا عادية" (3)

ترتب عن حادثةالمؤاخاة جملة من الآثار الحميدة التي يمكن حصرها كالآتي :

* تقديم الآصرة الإيمانية على آصرة النسب و القرابة و الدم : وبذلك تم تذويب العصبيات الجاهلية , وتأصيل المودة في قلوب المهاجرين و الأنصار على السواء .

* ضمان الاستقرار اللازم لبناء الدولة الإسلامية : وهنا تصبح آصرة المودة و التآخي شرطا لنهوض و استقرار اللدولة , لأنها تعمل على إشاعة الروح الإسلامية التي هي العصب المحرك لإرساء قواعد مجتمع جديد .

* استباق الأزمات : حيث شكلت المؤاخاة صمام أمان إزاء التقلبات و الأحداث التي شهدتها المدينة , خصوصا بعد تشكل طبقة المنافقين , وانكشاف مؤامرات اليهود . بل إن فاعليتها السياسية امتدت لما بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم , حين مكنت من تذويب الخلاف الناشيء في سقيفة بني ساعدة !

* تدبير الوضع الاقتصادي الطاريء : إذ حرص النبي صلى الله عليه وسلم من خلال المؤاخاة على إيجاد تشريع ملائم ييسر للمهاجرين معاشهم كي لا يظلوا عالة على إخوانهم .

ولم يأل الأنصار جهدا لبذل ما في وسعهم , والتخفيف عن المهاجرين مما يُلازم النفس عادة من ألم الوحشة ومفارقة الديار,حتى قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : "ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن بذلا من كثير,ولا أحسن مواساة في قليل , قد كفونا المؤنة, و أشركونا في المهنأ" (4)

إن قصة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع لهي أروع مثال على صدق التطبيق العملي لعقد المؤاخاة, حين يبلغ الإيثار حد تقاسم الأزواج. وهي الدليل على أن المجتمع الذي تكون العلاقة بين أفراده محكومة بمثل هذه المعايير الدينية , يرقى إلى درجة من التماسك و الوحدة تؤهله لبلوغ مرحلة التمكين , وتحقيق نهضة سوية .وهو ماحذا بالشيخ الغزالي إلى مطالبة الحكام بفرض نظام المؤاخاة على الناس " فإذا لم يُؤدوها طوعا أدوها كرها, وذلك كما يُجبرون على العلم و الجندية و أداء الضرائب" !

ما أحوجنا اليوم إذن إلى المؤاخاة العملية ..تلك التي تتجاوز حدود الثناء البارد,والعبارات الطنانة , لتجلو عن حوزة الإسلام ما تثيره حوافر أعدائه من غبار الحمية الجاهلية !

المصادر

---

(1) : محمد الغزالي .فقه السيرة.دار الشروق. ط2 . 1424هـ. ص 138

(2) : مرجع سابق .ص 139

(3) : راجع , إن شئت, مجمل التبريرات العقلية لموقف الأنصار و الرد عليها في كتاب : السيرة النبوية تحت ضوء العلم و الفلسفة للكاتب الإسلامي محمد فريد وجدي .الدار المصرية اللبنانية . ط1 1413 هـ ص143-148.

(4): رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك .ترتيب أحمد البنا.ج21 ص

رجوع للفهرس

هذا الأمين ..رضينا !

في الحياة المحمدية قبل البعثة محطات يجدر الوقوف عندها ,وتلمس ما تنطوي عليه من معان ودلالات .

و إذا كنا نعيب على بعض الباحثين احتكامهم إلى العقل المجرد في تأويل أحداث السيرة ,فهذا لا يعني بالضرورة استفراغ الجهد في تصحيح السند وتحقيق الرواية ! بل إن واجب الاقتداء يفرض تجديد الوقوف عند هذه الأحداث , و إعمال النظر المتزن في مجرياتها , مع استحضار التوقير اللازم لصاحبها عليه أفضل الصلاة و السلام .

وحادثة التحكيم هي إحدى المحطات التي قلما توقف عندها باحث , وأعمل فيها فكره ! إذ أن دلالتها تتخطى حدود الإشادة برجاحة عقل الرسول صلى الله عليه وسلم , وحسن تدبيره للخلاف , صوب التمهيد للنبوة و ما أحدثته من انقلاب عظيم في النفسية العربية !

قبل البعثة بسنوات قليلة تعرضت الكعبة لتصدع بنيانها بفعل سيل جارف , فقررت قريش إعادة تشييدها لما يحظى به هذا البيت من حرمة وقداسة .وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن شاركوا في نقل الحجارة وعمره آنذاك خمس وثلاثون سنة على الأرجح .فلما فرغوا من البناء و أرادوا وضع الحجر الأسود موضعه , شب الخلاف بين أشرافهم حول من يحظى بهذه المزية , وكادت نار الحرب أن تُسعر حتى أن بني عبد الدار وبني عدي قربوا جفنة مملوءة دما وتعاهدوا على الموت !

دامت الخصومة أربع ليال أو خمسا قبل أن يبتدرهم أحد عقلاء مكة برأي حكيم تطيب به الخواطر . ذلك أن " أبا أمية بن المغيرة , وكان عامئذ أسن قريش كلها, قال : يا معشر قريش, اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه .ففعلوا .فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .فلما رأوه قالوا : هذا الأمين , رضينا ! هذا محمد . فلما انتهى إليهم و أخبروه الخبر قال : صلى الله عليه وسلم : هلم إليّ ثوباً , فأُتي به , فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا , ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده, ثم بُني عليه" (1)

يكشف هذا الحدث إذن عن الإقرار الجماعي بحكمة النبي وسداد رأيه , وهو تتويج للاستقامة الخلقية التي وسمت علاقته بالمجتمع المكي بميسم خاص . و إذا أضفنا الإجماع على صدقه قبل أن يجهر بدعوته من فوق الصفا (2) تبين لنا أن الإخبار بنبوته كان ينبغي أن يُقابل بالغبطة أو على الأقل بالتروي و إعمال الفكر فيما يُنادي به , فما السر إذن في مناهضتهم له , وإنكارهم لدعوته رغم أنه لم يكن بدعا من الرسل ؟

إن محاولة فهم وتحليل الموقف القرشي من الدعوة , والذي انتقل محمد صلى الله عليه وسلم بموجبه من مربع "الصادق الأمين " إلى مربع "الكذاب و الساحر و المجنون و الكاهن" تقتضي أولا الوقوف عند طبيعة الفكر الديني الذي ساد مكة قبل بزوغ فجر الإسلام .

كانت مكة , بعد أن رفع إبراهيم عليه السلام قواعد البيت مع إسماعيل , مركزدين التوحيد و الملة الحنيفية السمحة. لكن مع تقادم العهد وتوالي الأيام , اعترى العقيدة ما يعتري الجسم من لوثة وفساد . فبعد أن آلت السيادة على مكة لقبيلة خزاعة , قرر أميرها عمرو بن لحي استبدال ما تبقى من دين إبراهيم بعقيدة جديدة استلهم طقوسها من زياراته المتكررة لبلاد الشام و العراق .كان القرار سياسيا بالدرجة الأولى فقد رأى في الوثنية " وسيلة لإيجاد سند مادي يعتمد عليه في تدعيم نفوذه السياسي , لذا تخلى عمرو عن الحنيفية دين إبراهيم و إسماعيل , وأقام الأوثان عند الكعبة ونصب كبيرها "هبل " في بطن الكعبة " (3)

كان من الطبيعي أن تلقى هذه الانتكاسة الدينية معارضة من لدن العقلاء . ورغم نجاح عمرو بن لحي في إخماد صوتها , إلا أن صدى التوحيد بقي يتردد في أعماق الشعور الديني , ويحول دون تمكن الوثنية من عقل البدوي وقلبه .وما يؤيد هذه الحقيقة جملة ملاحظات يخلص إليها كل من يستقريء الواقع التاريخي لشبه الجزيرة قبل الإسلام , وفي مقدمتها :

* أن الفكر الديني آنذاك كان يتسم بالسذاجة وبناء أمر الإيمان على التقليد الأعمى لا على أساس العقل المفكر في الدين .لذا نجد تراث العرب خاليا من أي أثر للفكر النظري أو القضايا العقلية المصاحبة لفعل التدين (4).

* أنهم كانوا على يقين بأن الوثنية لم تعتمد على رسالة سماوية أو نبوة , وإنما هي تقاليد ورثوها عن أسلافهم , لذا كانت طقوسهم خالية من العاطفة

الدينية و التعلق الروحي .بل إننا نجد من الشواهد ما يؤكد سخريتهم بهذه الأوثان , و امتعاضهم من الخضوع لها .ومن ذلك أن أحدهم ذهب إلى صنم يُقال له "سواع" فوجد ثعلبين يلحسان ما حوله من طعام ثم يبولان عليه , فأنشد قائلا :

إله يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب !

* أن ضمور العاطفة الدينية حال دون تعيينهم لرجال رسميين يتولون الخدمة الدينية لهذه الأوثان كما نجده حتى في القبائل البدائية (5) بل انصرفت عنايتهم بالأساس لخدمة الكعبة و سدانتها.

فكيف نبرر إذن تعصبهم للوثنية ؟

وهل كانت مناهضتهم لدعوة الإسلام في بدايتها دفاعا عن الوثنية كعقيدة رسخت في صميم ماهية الإنسان العربي , أم على الوثنية كتزكية لوضع اجتماعي واقتصادي قائم ؟

ابتدعت قريش قبل عام الفيل مذهب "الحُمس" , وهو مذهب يُضفي على قريش ميزة طبقية ودينية من دون سائر العرب , على اعتبار أنهم من نسل إبراهيم عليه السلام , وأنهم وُلاة البيت و أهل الحرم . وبالغوا في وضع تشريعات تربط عصبيتهم القبلية بحرمة الكعبة لتعزيز سطوتهم على العرب , وتقوية مركزهم المالي .يخلص الدكتور محمد الفيومي بعد تحليل المحتوى

الفكري لهذا المذهب إلى القول بأن قريشا " عززت وضعها الاقتصادي برحلاتها التجارية , وعززت أيضا وضعها القبلي بتشريعاتها الوثنية , وارتباطها بالبيت حتى أصبح كل من يتمرد على قريش , فهو يتمرد على قدسية البيت , ومن يتمرد على البيت فهو يتمرد على قريش .وبهذا أصلت الوثنية الوضع القبلي , وأصبح هدم النظام القبلي يستدعي هدم النظام الوثني ..وهذه عقبات في سيبيل الإصلاح" (6)

فنحن إذن في الحقيقة أمام دفاع عن امتيازات أُسبغت عليها القداسة , وعن وضع قائم يُغذيه الجهل بحقيقة الحبل المتين الذي يصل الرسالة المحمدية بدعوة إبراهيم عليه السلام .

استمرت المعارضة للوثنية دليلا على استقرار بذرة التوحيد في النفوس , وكانت طائفة الحنفاء(7) شاهدا على نقاء الفطرة وسلامتها.فجاءت رسالة الإسلام لتنتشل العاطفة الدينية من وهدة التخبط و الركون إلى ممارسات يمُجها العقل السليم.و النبي صلى الله عليه وسلم , بإيقاظه لهذه العاطفة , هز أركان النظام الوثني و القبلي على حد سواء , وهذا في الحقيقة ما أذكى عداوة قريش له بعد أن فشلت في استمالته !

المصادر

---

(1) : عبد السلام هارون .تهذيب السيرة لابن هشام .ص55

(2): لما نزل قوله تعالى "فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين" صعد عليه الصلاة و السلام على الصفا وجعل يُنادي : يا بني فهر يا بني عدي حتى اجتمعوا .فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذبا , قال : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد " فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم , ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى "تبت يدا أبي لهب وتب " .

(3): د.علي حسن الخربوطلي .تاريخ الكعبة .دار الجيل .بيروت.ط3 1411هـ .ص 30.

(4): راجع : د.علي مبروك . النبوة من علم العقائد إلى فلسفة التاريخ .

(5) : محمد فريد وجدي .السيرة المحمدية تحت ضوء العلم و الفلسفة.الدار المصرية اللبنانية. ط1 1993 . ص132

(6) : د.محمد إبراهيم الفيومي. في الفكر الديني الجاهلي .دار المعارف.ط 3 1982. ص 241.

(7) : هم الذين أنكروا ما أدخلته قريش على ملة إبراهيم من بدع في العقيدة و الشريعة وخصوصا شريعة الحج ,ومن أبرز من مثل هذه الطائفة : زيدبن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وغيرهم.

رجوع للفهرس

الإسراء و المعراج : هل تعوزنا قراءة جديدة ؟

يبدو أن الصلاحية الذاتية للإسلام و تساوقه العجيب مع الفطرة يقفان حجر عثرة أمام ذبذبات الشك التي تستهدف وجدان المسلم المعاصر وعقله,وتجتاح بين الفينة والأخرى فضاءنا المعرفي في صورة أبحاث و دراسات ومشاريع فكرية. فتطوير آليات المواجهة و نسف الحقائق الثابتة لن يتوقفا مادام المسلمون موقنين بأن الدين عند الله هو الإسلام ,وأن النبوة المحمدية اصطفاء إلهي و ليست تجربة تاريخية ,أو مواهب فطرية لرجل قرر لم شعث البدو في جزيرة العرب.إن الدراسة الاستشراقية المعاصرة , في حيز مهم من إصداراتها و تصريحات أقطابها , لا تخفي انكبابها على كل ما من شأنه قطع حبال عقيدتنا الموصولة بالسماء,وتبرير الامتداد الزماني و الجغرافي لهذا الدين بكونه وليد عبقرية أرضية هيأ لها المناخ السياسي و الاجتماعي آنذاك فرصة ثمينة لإخراج العرب من ضيق القبيلة إلى سعة الدولة , ثم تأسيس امبراطورية.ولعل أشق ما واجهه البحث الاستشراقي المنحاز لموقف إيديولوجي مناوىء للإسلام هو قائمة المعجزات والآيات الخارقة للعادة , سواء تلك التي شكلت لحظات مفصلية في مسيرة البناء العقدي,أو التي سعت إلى تأكيد نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم , و تشريفه من دون سائر الخلق بتجليات العناية الإلهية.لذا نجد الكتابة الاستشراقية المغرضة موزعة بين إنكارالمعجزات جملة و تفصيلا باعتبارها أمورا لا يتقبلها العقل,وبين إدراجها ضمن سياق يقطع صلتها بالسماء ,

كالحديث عن كونها وليدة اختلالات نفسية , أو ثمرة الاتكاء على ضروب السحر و الكهانة لتأكيد زعامة جامحة !

و تندرج حادثة الإسراء و المعراج ضمن أكثر المعجزات تحريكا لضغائن هؤلاء بعد حادثة غار حراء , فكلتاهما تفضحان طوية الباحث الغربي عند مراجعته لأحداث السيرة النبوية : إما الإقرار بحدوثهما و بالتالي الاعتراف ضمنا بالإسلام كرسالة سماوية , و إما المناورة و الافتئات و الارتهان لطرح كنسي ساذج ,لا يصمد أمام التحليل الهاديء و الموضوعي . قد يبدو الانشغال هنا بموقف " الآخر" من هذا الحدث الفريد هينا و لا يستحق أن يُلتفت إليه,ففي النصوص الدينية غنية وكفاية لمن كان له عقل وقلب سليم, لكن ما يثير مخاوفنا هو انسياق المسلم المعاصر خلف هذه القراءة المغرضة التي ترتدي مسوح العلمية و الطرح الأكاديمي البحت , مما يزج به في دوامة شك و ارتياب إزاء ثوابت الدين ويقينياته .

إن المعاني و الدلالات التي تنطوي عليها حادثة الإسراء و المعراج تستحثنا لاستعراض قراءتين متجاورتين بشكل غريب . تختلفان من حيث المنبع , لكنهما تلتقيان عند مصب واحد هو الوقوف عند حافة "العجائبي" في رصدهما لتفاصيل هذه الحادثة . أما القراءة الأولى , كما أوردنا آنفا , فلا تعدو أن تكون تعبيرا عن موقف إيديولوجي يرى في هذا الدين عدوا لدودا للحضارة الغربية المسيحية , في حين أن القراءة الأخرى إسلامية تبسيطية ومختزلة , تجنح في الغالب إلى الاكتفاء بتخريج الأحاديث و بيان صحيحها

و سقيمها , ثم إعادة سردها ضمن سياق حكائي قلما يعنى بالدلالات المتجددة . و ليس في الأمر انتقاص من جهد الغربلة الذي اضطلع به السلف الصالح , و لامن المبادرة إلى توحيد الآراء المتباينة حول بعض التفاصيل , كالخلاف حول الرحلة هل كانت بالجسد أم بالروح ؟ و رؤيته صلى الله عليه وسلم لربه تبارك و تعالى هل تمت بالعين أم بالفؤاد ؟ومن المعني بالدنو و التدلي أهو الرب تعالى أم جبريل عليه السلام ؟ إلى غيرها مما لا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل و لا استحالة في حملها عليه فيحتاج إلى تأويل كما قال الإمام النووي رحمه الله في شرحه على صحيح مسلم .هذا الجهد المبارك مكن المسلم من التحرك داخل إطار معرفي وديني متماسك لا تضره الشبهات, و لا تفتنه صيحات محترفي التشكيك .لكننا اليوم أحوج ما نكون إلى قراءة متجددة , تستجلي ما وراء الحدث,و تعيد صياغة مبحث السيرة النبوية عموما وفق لغة وخطاب يُؤهلان المسلم المعاصر لمجابهة ألوان الغزو الفكري التي تستهدف عقيدته .

- القراءة المغرضة :

" تهجد العراف" , إنه التشبيه الذي يعتمده كارل بروكلمان لوصف حادثة الإسراء و المعراج , في إحالة منه على الأوهام و الهلوسات التي تطبع الرؤى الدينية لدى الشعوب البدائية . ومعلوم أن بروكلمان يُصنف في خانة المستشرقين الذين يُخالفون كل الروايات الإسلامية الصحيحة , و يكتبون , لا من باب إثبات حقائق بل لتدعيم أطروحات كنسية لا تحتاج – بزعمهم-

إلى دليل , وفي مقدمتها أن عالم النبي الفكري منبثق عن اليهودية و النصرانية , وأن محمد صلى الله عليه وسلم كيفه تكييفا بارعا ليلائم الحاجات الدينية لشعبه. بل إن بروكلمان لا يتورع أن يضيف , وهو الدارس للغات القديمة, مصادر أخرى اقتبس منها النبي مقولاته الدينية وأهمها الآرامية و الفارسية و البابلية ! (1)

أما الباحثة البريطانية كارين آرمسترونغ التي كال لها بعض كتابنا المسلمين الثناء لتقديمها شهادة موضوعية , برأيهم ,عن محمد صلى الله عليه وسلم ,فلا تتورع عن استحضار الإرث المسيحي المتعصب إزاء كل ما يحيل على عموم الرسالة المحمدية و عالميتها.فهي تلجأ للنفي الصريح كما في موقفها من الرسائل النبوية إلى حكام العالم آنذاك , حين أعلنت دون مواربة أن هذ الخبر مدسوس لأن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يكن يرى أن الإسلام دين عالمي سيلغي ما أنزل على أهل الكتاب. كما تعتمد النسف الذكي حين تصهر حادثة الإسراء و المعراج في قالب واحد مع الطقوس اليهودية و البوذية ! فرحلة المعراج كما وردت في المصادر الإسلامية تتشابه , برأيها , مع تجربة "تصوف العرش" في التقاليد اليهودية و التي شاعت من القرن الثاني حتى القرن العاشر للميلاد , حيث يقوم الموهوبون بإعداد أنفسهم للتحليق الصوفي و الرحلة إلى عرش الله من خلال تدريبات خاصة كالصوم و قراءة أوراد معينة , بل واللجوء لبعض الحيل و الأساليب البدنية الخاصة كوضع الرؤوس بين الرُكب على نحو ما كان يصنع محمد بحسب الروايات

الإسلامية ! وبعد ذلك يشعرون أنهم بدأوا رحلة صعود تكتنفها المخاطر إلى عرش الله . وكانوا,شأنهم في ذلك شأن المسلمين , يصفون الرؤية العلوية القصوى بأساليب تقوم على المفارقة و تستعصي في جوهرها على الوصف و التعبير . كما يشبه المعراج نفسه تجربة الدخول في سلك كهنوت الشامانيين, والتي مازالت تحدث في أرجاء شمالي آسيا و أمريكا.وحتى العقائد الوثنية لا تخلو من تجارب مماثلة , فبلوغ سدرة المنتهى يرمز في الإسلام , كما في التقاليد الهندوسية إلى الحد الأقصى للمعرفة الإنسانية . أما المشاهدات النبوية في هذه الرحلة فليست سوى تصوير رمزي ناشيء , كما في البوذية , عن الإحساس بالمطلق و الامتداد الشاسع للوحي . إن الأمر لا يعدو أن يكون "حالة " طبيعية محضة يُولدها انضغاط الوعي الإنساني و ليس نتيجة اللقاء مع "الآخر" ! (2)

و على غرار آرمسترونغ يمضي كولين تيرنر في تجريد الحدث من طابعه المعجز, من خلال التأكيد على أن ما عاشه محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن سوى تجربة روحية ونفسية حدثت أثناء نومه , و أنه التقى في منامه بجميع الأنبياء و الرسل مما كان له الأثر الكبير في تعزيز ثقته بنبوته , و تأهيله لتحمل الآتي من الصعاب (3)

- القراءة المختزلة :

ونعني بها كل قراءة تقف بمحاذاة النص غافلة أو غير عابئة بما يضج به الواقع من أسئلة و إشكالات و احتياجات .إنها القراءة التي تتعامل مع النص

باعتباره إرثا معرفيا جاهزا , و نسقا مغلقا تلجه لا لتثوير مضامينه , وتحيينها و تأهيل المسلم المعاصر للتعاطي معها بفاعلية , وإنما للسرد التاريخي دون تعليل , و الخوض في مسائل خلافية لا تناسب إطارها الزمني . إن كثيرا ممن ألفوا في السيرة النبوية , كما لاحظ العلامة محمد فريد وجدي , كان معتمدهم على الأساليب البيانية و البراعة الخطابية , ولم يعنوا بحاجة العقول المجبولة على التشكك إلى الاطمئنان المتثبت . إن مثقفي اليوم لم يعودوا يقتنعون بسرد الأحداث التاريخية دون تعليل , مما يقتضي عرضها في لون فكري يرضي كل متعطش للمعرفة , ويُقنع من يمتري في الحق لشكوك تقوم في نفسه .[4]

تقف القراءة المختزلة لحادثة الإسراء و المعراج عند حدود التهذيب و التشذيب و جرد أقوال السلف . وهو جهد لا ننكر الحاجة إليه خاصة بعد أن عمدت الذاكرة الشعبية إلى مزج تفاصيل الرحلة بتأملات المتصوفة و الشعراء و خيال القصاصين , حتى اندرجت في خانة الأساطير التي يُغذي بها المستشرقون مطاعنهم . غير أن هذا الجهد لا يفي اليوم بالغرض , ولا يستجيب لألوان القلق الفكري التي تغذيها اليوم أبحاث و دراسات و إصدارات , تعتمد مناهج و رؤى نقدية حديثة, تتغلغل بليونة وخبث في النسيج الأكاديمي العربي و الإسلامي متلفعة برداء الحياد و العلمية .

- بين القراءتين :

وحدها الحركة الحرة للفكر داخل حدود النص كفيلة بالتأسيس لقراءة متجددة , وإحداث نقلة معرفية في الحقل الديني تستجيب لأسئلة الحاضر ورهاناته . إنه الأمر الذي تنبه له بعض كتاب السيرة النبوية في العقود الأخيرة فحققوا انزياحا ملفتا عن الكتابة النمطية في مجال السيرة النبوية , وارتادوا آفاقا جديدة في الفهم و تفكيك الوقائع و استنطاق الأحداث , مما أهل كتاباتهم لاستعادة التقارب بين عالم الدعوة الأولى وواقعنا المعاصر . يكشف الدكتور مصطفى السباعي في كتابه الماتع" السيرة النبوية دروس و عبر " عن ثلاثة أسرار بليغة أثمرتها رحلة الإسراء و المعراج . أولها هو ربط قضية المسجد الأقصى وفلسطين بقضية العالم الإسلامي , فأصبح الدفاع عنهما دفاعا عن الإسلام نفسه و التفريط فيه تفريط في جنب الله وجناية يعاقب عليها الله ورسوله. وثانيها هو الإحالة على ما ينبغي أن ينفرد به المسلم من سمو وعلو مكانة و لزوم للصلوات الخمس التي يتحقق بها عروج روحي شبيه بمعراج الرسول , أما ثالثها ففيه الإشارة إلى إمكان ارتياد الفضاء و الخروج عن نطاق الجاذبية الأرضية . فلقد كان رسولنا صلى الله عليه وسلم أول رائد للفضاء في تاريخ العالم كله , وأثبت أن ريادة الفضاء و العودة بسلام إلى الأرض أمر ممكن , إن وقع بالمعجزة في عصره فإنه يقع للناس عن طريق العلم و الفكر (5)

أما الشيخ أبو الحسن الندوي فيعلن أن هذه الرحلة النبوية الغيبية اشتملت على معان و إشارات حكيمة بعيدة المدى , أهمها أنها شكلت خطا فاصلا بين

الناحية الضيقة المحلية المؤقتة , وبين الشخصية النبوية الخالدة العالمية .فلو تعلق الأمر بزعيم أمة أو قائد عظيم فحسب لما كان هناك داع لهذه السياحة في الملكوت ,و لهذا الاتصال الجديد بين الأرض و السماء . إنها معجزة أثبتت أن محمدا صلى الله عليه وسلم ليس من طراز القادة الذين لا تتجاوز مواهبهم وجهودهم حدود البيئات التي ينبعون منها , و إنما هو من جماعة الأنبياء و الرسل الذين يحملون رسالات السماء إلى الأرض , و رسالات الخالق إلى الخلق , فتسعد بهم الإنسانية على اختلاف شعوبها وطبقاتها و أجيالها (6)

في حين يستهل الشيخ محمد الغزالي جرده للمعاني المتصلة بهذه الرحلة العجيبة بسؤال مفاده : لماذا كانت الرحلة إلى بيت المقدس , ولم تبدأ من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة ؟ فيلفت انتباهنا إلى دلالة تدق على السذج , كما قال رحمه الله , وهي أن النبوات ظلت دهورا طوالا وقفا على بني إسرائيل , وظل بيت المقدس مهبط الوحي , و مشرق أنواره على الأرض و قصبة الوطن المحبب إلى شعب الله المختار , فلما أهدر اليهود كرامة الوحي و أسقطوا أحكام السماء , حلت بهم لعنة الله , وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد ! ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد صلى الله عليه وسلم انتقالا بالقيادة الروحية في العالم من أمة إلى أمة , ومن بلد إلى بلد , ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل . وحدوث الإسراء و المعراج في منتصف فترة الرسالة التي دامت ثلاثة وعشرين عاما مرده إلى أن القصد

من الخوارق و المعجزات في سير المرسلين الأولين هو قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة , أما في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم فقد تكفل القرآن بإقناع أولي النُهى من أول يوم , في حين جاءت المعجزات ضربا من التكريم لشخص النبي غير معطلة للمنهج العقلي الذي اشترعه القرآن .

أما التحيات المتبادلة بين النبي و إخوته السابقين , و استقبالهم له بهذه الكلمة : مرحبا بالأخ الصالح ! ففيهما إشارة إلى أنه مرسل لتكملة البناء الذي تعهدوه , وأن بالإمكان اليوم , لو خلصت النوايا ونُشد الحق , أن توضع أسس عادلة لوحدة دينية , تقوم على احترام المباديء المشتركة وإبعاد الهوى عن استغلال الفروق الأخرى إلى أن تزول على الزمن أو تنكسر حدتها . والإسلام الذي تعد تعاليمه امتدادا للنبوات الأولى , و لبنة مضافة إلى بنائها العتيد , أول من يرحب بهذا الاتجاه ويزكيه [7] .

إن حادثة الإسراء و المعراج لم تكن ضيافة كريمة من الله ,وتطييبا لخاطر النبي بعدما لقيه من عنت و اضطهاد في مكة و الطائف فحسب .ولم تقف حتما عند مرمى فرض الصلوات الخمس , بل انطوت على معان و إشارات ثاوية في دقائقها و تفاصيلها . فهل تبري الكتابة الإسلامية المعاصرة أقلامها سعياً نحو قراءة متجددة تحقق التمازج الحكيم بين الاستنطاق الهاديء و الاندفاعة العاطفية ؟

ذلك ما نأمله !

المصادر

1- عبد الله محمد الأمين النعيم : الاستشراق في السيرة النبوية . المعهد العالمي للفكر الإسلامي . ط 1/ 1997 .ص49

2- كارين آرمسترونغ : سيرة النبي محمد . دار النشر سطور. القاهرة 1998 . ص 210-214 بتصرف

3- كولين تيرنر . الإسلام : الأسس . الشبكة العربية للنشر . بيروت 2009 . ص 47-48

4- محمد فريد وجدي : السيرة المحمدية تحت ضوء العلم و الفلسفة . الدار المصرية اللبنانية .ط 1 /1993 .ص13-14 بتصرف

5- مصطفى السباعي : السيرة النبوية دروس و عبر . المكتب الإسلامي . بيروت 1985 . ص 58-59

6- أبو الحسن الندوي : السيرة النبوية . دار الشروق . جدة 1989 . ص 150

7- الشيخ محمد الغزالي : فقه السيرة . دار الشروق , د.ت . ص 101 - 104 بتصرف

رجوع للفهرس

البناء القيمي في السيرة النبوية

إن رصد مظاهر الحرص النبوي على إرساء منظومة القيم الإسلامية, واعتبارها اللبنة الأساس لبناء الإنسانية يحملنا على الجزم بأن شرف الإنتماء لهذا الدين لا يتم إلا من خلال صون هذه القيم وحراستها, خصوصاً في ظل متغيرات عالمية تدفع الى التشكيك في جدواها و فاعليتها ,وتعتبر ربانية المنبع القيمي تقييداً لحركة المسلم المعاصر و عائقاً أمام الإنطلاق الفكري و النهوض المجتمعي !

لقد بُعث النبي صلى الله عليه و سلم في بيئة تمتزج فيها بقايا قيم الملة الحنيفية الإبراهيمية , من مروءة و نبل و كرم ووفاء . مع ما تولد عن الوثنية من قيم شائهة ومنحرفة كوأد البنات خشية الفقر و العار , و الحمية الجاهلية التي تُسعر نار الحرب ثأراً لناقة أو بعير . فكان نهجه صلى الله عليه وسلم في اصطفاء القيم النبيلة و السمو بها نهجا غير مسبوق , وكان له عظيم الأثر في نسج الشخصية الإسلامية التي ستُرسي في أقل من قرن من الزمان دعائم حضارة لم تشهد لها البشرية مثيلا !

فما هي سمات هذا النهج النبوي , وما هي أبرز شواهده من السيرة النبوية ؟

يقول الدكتور جابر قميحة ".. ثم جاء الإسلام – خاتما للأديان- وهذه الخاتمية تقتضي أن يكون أكمل الأديان وأوفاها بحاجات الإنسانية , وأبرعها في معالجة الأدواء التي حوتها قائمة القيم الجاهلية , واختلف موقف الإسلام من هذه القيم تبعاً لنوعيتها ..

1- فقابل بعضها بالرفض وقضى عليه قضاء مبرما .

2- و أقر بعضها و شجعه و دعا إليه .

3- وسما ببعضها الآخر فعاد بالنفع على الدين و الناس " [1]

فكان الموقف النبوي من القيم السائدة مبنيا على ثلاث : التحريم , و الإقرار , والإعلاء مع مراعاة التدرج في إحداث النقلة الأخلاقية المطلوبة,و تمكين النفوس من التشرب المطمئن لهذه القيم في صيغتها الإسلامية الجديدة !

ومن يتصفح كتب السيرة يشعر أنه أمام رحلة مضنية في سبيل تثبيت القيم الإيجابية , وتخليص النفوس من درن القيم الجاهلية المنفرة من خلال الحرص على وصل البناء القيمي بالمنبع الرباني مصداقاً لقوله تعالى " إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم". وبما أن المقال قد لا يتضح إلا بالمثال,فسنعرض في الأسطر الآتية شواهد لهذا النهج النبوي الفريد .

لقد بُعث المصطفى صلى الله عليه وسلم في بيئة تحفل بنماذج اللامساواة , بيئة يقوم نظامها الإجتماعي على مبدأ القوة , و تعتمد في موارد عيشها على التجارة و السلب و الإغارة . فكان من الطبيعي أن تنشأ طبقة العبيد و الأرقاء, و تُسن أعراف و تقاليد تُنْزِل العبد منزلة الدابة ,لا بل أسوأ من الدابة نفسها !

كما كان التفاخر بالأحساب و الأنساب باعثاً على الإنحياز للظالم مادام من ذوي القربى , و اعتبار الذوبان في ذات القبيلة شرفاً وعزاً حتى و إن كان

ديدنها الجور و البطش و أكل القوي للضعيف . يقول أحد شعرائهم في هذا الشأن – وهو دريد بن الصمة - :

فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم وأنني غير مهتد

وهل أنا إلا من غُزية إن غوت غويت و إن ترشد غزية أرشد

توالت الآيات و الأحاديث الشريفة التي تُبطل التفرقة العنصرية و المحسوبية , و تُرسي قاعدة المساواة بين الناس و تؤسس لمعيار جديد في التفاضل هو معيار التقوى . كما حرص النبي صلى الله عليه وسلم في مواقف عدة على التطبيق الحازم لهذا المبدأ السامي , فقد روى الامام مسلم بسنده عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا : من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا: ومن يجتريء عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم , فكلمه اسامة , فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : أتشفع في حد من حدود الله ؟ ثم قام فاختطب فقال : " يا أيها الناس إنما أهلك الذي قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه , وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد , وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " [2].

وبالمقابل نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم بارك القيم النبيلة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي قبل بعثته , وأثنى عليها . ومنها الأحلاف التي كانت تعقدها القبائل العربية لنصرة المظلوم و إجارة المستجير و إغاثة

الملهوف , كحلف " المطيبين " و " حلف الفضول " الذي شهده رسول الله صلى الله عليه و سلم في دار عبد الله بن جدعان , و اثنى عليه بقوله " لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم , ولو أدعى به في الاسلام لأجبت"[3] .

ذلك أن هذه الوثيقة "الجاهلية" تطرقت إلى الدفاع عن حق اساسي من الحقوق الانسانية , وكان لها قصب السبق على "الماجنا كارتا" و إعلان المواطن الفرنسي" بمئات السنين , مما يُثبت مرة أخرى أن البيئة العربية قبل الإسلام وإن لم تبلغ شأن الحضارتين الفارسية والبيزنطية إلا أنها لم تخل كذلك من شواهد النُبل الإنساني الذي ماكان على الإسلام إلا وصله بالسماء لتنهض أرقى الحضارات على أكتاف رعاة الغنم ! !

وهذا ما حدث بالنسبة لقيم أخرى كان الباعث لها هو النخوة العربية و العصبية القبلية فحرص النبي صلى الله عليه و سلم على السمو بها و تنقيتها من شوائب الغريزة و عوامل الأثرة . و يظهر ذلك جليا من خلال موقف الإسلام من الشعر و القيم التي يروج لها .

فمن المعروف أن الأمة العربية أمة شاعرة,وأن الشعر ديوانها و نُسغها وخزان بطولاتها و ثاراتها , و الصائن لذاكرتها . أما ميلاد شاعر مفلق في القبيلة فحدث عظيم تقام له الأفراح و تسير بذكره الركبان . بيد أن المضمون الفكري و القيمي الذي يحفل به هذه الشعر كان يتقلب بين الوضاءة والوضاعة , ففيه الغزل الفاحش المتهتك , و الهجاء المقذع , و

المديح الموغل في الكذب . كما أن فيه الغزل العفيف , و التغني بأنبل الخصال الانسانية من حلم و كرم و فداء , و صوغ الحكم و العظات التي كان لسماعها فعل السحر في النفوس .

فلما بُعث المصطفى صلى الله عليه و سلم و طرقت آيات القرآن الكريم مسامع قريش , أذهلهم البيان القرآني فحاولوا عبثا أن يُرجعوا الأمر إلى ملكة شعرية أو خبرة بالكهانة و السحر , لكن الحق سبحانه تولى الرد على مزاعمهم تخليصا لهم من حالة الذهول و الارتباك في قوله تعالى" وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر و قرآن مبين" (4).

أما السمو بالقيم الفنية وفي مقدمتها الشعر فسيبينه الرسول صلى الله عليه و سلم حين نزل قوله تعالى " و الشعراء يتبعهم الغاوون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * و أنهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات * و ذكروا الله كثيرا * و انتصروا من بعدما ظُلموا * و سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون" (5) ذلك أنه لما نزلت هذه الآيات جاء حسان بن ثابت و عبد الله بن رواحة و كعب بن مالك وهم يبكون , فتلا النبي صلى الله عليه و سلم : إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات , وقال : أنتم . وذكروا الله قليلا .قال : أنتم . و انتصروا من بعد ما ظُلموا. قال : أنتم (6). و بذلك كشف النبي صلى الله عليه وسلم عن دلالة الاستثناء في الآيات وما يرمز إليه من دعوة للانسجام بين المضمون الشعري و تعاليم القرآن .

وحين أخذ الشعراء دورهم في المعركة بين الحق و الباطل , كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحث شعراء الصحابة على نُصرة الدين بألسنتهم كما ينصرونه بسيوفهم , خصوصا و أن ما يذيعه شعراء المشركين من هجاء للرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه كان بمثابة حملة إعلامية مغرضة تصد القبائل العربية عن الدخول في دين الله أفواجاً . ومما رُوي في هذا المنحى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان بن ثابت رضي الله عنه : شُن الغطاريف على بني عبد مناف , فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام . ثم إن حسانا أخرج لسانه فضرب به أرنبة أنفه , وقال : و الله يا رسول الله , إنه ليخيل إلي أني لو وضعته على حجر لفلقه , أو على شعر لحلقه . فقال النبي صلى الله عليه و سلم : أيد الله حسانا في هجوه بروح القدس " (7)

هي إذن مداخل ثلاث عالج من خلالها النبي صلى الله عليه وسلم منظومة القيم السائدة :مدخل التحريم, ومدخل الاقرار,ومدخل الإعلاء و التسامي.وتلك خطوة أولى في البناء القيمي تلاها انصهار هذه القيم في بوتقة الإيمان لتكتسب صفة الخلود و الثبات .

إن المتتبع لمنهج النبي صلى الله عليه وسلم في إحداث النقلة المطلوبة من قيم الجاهلية إلى قيم الإسلام الحقة يُدرك سماحة الإسلام في ثنائه و إقراره للفضائل التي سادت قبل البعثة " حلف الفضول " , كما يُدرك فطرية هذه القيم و أصالتها وكفايتها للمجتمع الإسلامي أمام دعاوى العلمنة الزائفة !

المصادر

(1) : د.جابر قميحة . المدخل إلى القيم الاسلامية .ص30 دار الكتاب المصري ط1 1984

(2) : صحيح مسلم . رقم : 1688

(3) : أخرجه البخاري في الأدب المفرد (567) و البيهقي في سننه الكبرى (367/6) من حديث طلحة بن عبد الله ين عوف وهو حديث صحيح

(4) : سورة يس .الآية 69

(5) : سورة الشعراء . الآيات 223-226 .

(6) : ابن كثير.تفسير القرآن العظيم .354/3 .دار المعرفة بيروت 1982

(7) : ابن عبد ربه الأندلسي. العقد الفريد .277/5 مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر. القاهرة ط 3 1965 .

رجوع للفهرس

السيرة النبوية و هجمة الطابور الخامس

في كتابها الشهير " من الذي دفع أجرة الزمار ؟ الحرب الباردة الثقافية" تكشف مسؤولة المخابرات الأمريكية " فرانسيس ستونور ساوندرز" النقاب عن الدورالذي لعبته هذه الوكالة لتجنيد المثقفين عبر العالم . وسرطنة الأوساط الفكرية و العلمية من خلال تمويل الدراسات المشبوهة , و إحداث المعاهد و المراكز التي تعيد صياغة الحقائق و تشكيل العقول وتوجيه الرؤى بشكل يتوافق مع الأسلوب الأمريكي. وقد لعبت "منظمة الحرية الثقافية" , باعتبارها ذراع التجسس السري لوكالة المخابرات المركزية , دوراً كبيراً في استمالة عدد هائل من الفنانين و الإعلاميين و المفكرين لدعم طروحاتها من خلال المعارض الفنية و المؤتمرات و الصناعة السينمائية ووسائل الإعلام المختلفة .

ولعل أخطر المشاريع التي أوردتها المؤلفة في هذا السياق , مشروع الحرب النفسية الأمريكية الذي تبناه الرئيس الأمريكي السابق إيزنهاور إبان الحرب الباردة , وكان الهدف منه هو الانتصار في الحرب العالمية الثالثة دون الاضطرار لخوضها . يقول إيزنهاور " هدفنا في الحرب الباردة ليس الاستيلاء على أراض أو إخضاع الآخرين بالقوة . هدفنا أكثر براعة و أوسع مجالا و أكثر اكتمالا . نحن نحاول أن نجعل العالم يصدق الحقيقة بالوسائل السلمية.الحقيقة هي أن الأمريكيين يريدون عالما يعيش في سلام ,عالما تكون الفرصة فيه أمام جميع البشر لأقصى تقدم فردي ممكن . و الوسيلة التي سوف نستخدمها لنشر هذه الحقيقة تسمى عادة بالوسيلة النفسية لا

تخافوا من هذا المصطلح لأنه ليس مجرد كلمة من خمسة مقاطع ــخمسة دولارات,الحرب النفسية هي الصراع من أجل إرادات وعقول البشر " [1]

في هذا السياق يندرج المخطط العلماني الإستئصالي الذي يبذل وسعه اليوم لفرملة التجربة الإسلامية التي مكنتها الإرادة الشعبية من تولي مسؤولية الحكم. كما لا يخفي استقواءه بالأجنبي في سعيه المحموم لزعزعة استقرار البلد,وإثارة الفتن,وإفشال مساعي الأمة للنهوض و التحرر و استكمال البناء الحضاري.

ومن خلال هذا السياق كذلك نخلص إلى سر انكفاء المثقف العربي الذي يمثل التعبير الحق عن ضمير الأمة ونزوعها المستمر للحرية و الكرامة و النهوض , مقابل الصعود المثير للمثقف الخادم للأجندة الفكرية المدمرة بشتى صيغها و تلاوينها المعروفة .

إن هذه التوطئة ضرورية لاستيعاب الضجة التي أثيرت في المغرب بشأن ما أدلى به الناشط الأمازيغي المغربي أحمد عصيد . ففي جلسة افتتاحية للمؤتمر العاشر للجمعية المغربية لحقوق الإنسان, صرح الباحث بأن الرسائل الدبلوماسية التي بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم للملوك ذات حمولة إرهابية ولا يجدر تضمينها في مقرر التربية الإسلامية , كما أنها تخالف القيم الكونية التي تعد اليوم اسمى ما وصلت إليه الإنسانية ! و أن الطرح الإسلامي الذي فرض نفسه قديما بالسيف,يتناقض الآن بشدة مع المرجعية الدولية لحقوق الإنسان .

بغض النظر عما ورد في هذا التصريح المتهافت ,والذي يكشف ضحالة التكوين المعرفي و العلمي للباحث وجهله بأبسط قواعد البحث و النظر في النص الديني , فإن بودي التساؤل حقيقة حول السر وراء تحوله المفاجيء من الدفاع عن الأمازيغية إلى إشعال الحرائق في المشهد الديني و الفكري بالمغرب :

هل يتعلق الأمر بحرية مكفولة في تقييم تجربة وصول حزب إسلامي للحكومة ؟

أم هو التأثيث المتعمد لمشهد صدام يأمل عصيد في حدوثه بين الإسلام و الأمازيغية ؟

إن مقولة انتشار الإسلام بالسيف فرية تولى حتى كتاب الغرب من المنصفين و المعتدلين تفنيدها . أما ادعاء التناقض بين القيم الإسلامية و مثيلتها "الكونية" فتكفي لدحضه عشرات الأدلة عن اتساع القوة الجاذبة للإسلام في الغرب,و تشكل بوادر حقيقية للاعتراف به كعلاج للأزمة الأخلاقية التي تنخر كيان الحضارة الغربية [2]

بيد أن ما صرح به الباحث المغربي يحيل على إشكال تربوي تمت الإشارة إليه في مقال سابق [3] و يتعلق بمدى فاعلية الحضور التربوي للسيرة النبوية في النظم التعليمية , ومغبة الوقوف عند حدود الرصد التاريخي الذي لا يمكن أن يحقق مقصد التأسي و الاقتداء كما نص عليه القرآن الكريم .

و بالنظر لهيمنة المرجعية الغربية على الأداء الثقافي و الإعلامي لشريحة واسعة من المثقفين , فإن الرد على عصيد , من داخل المرجعية نفسها وعبر كتابات أقرب للتجرد و الموضوعية , قد يكون ,برأيي المتواضع , أبلغ في الإفحام و أدعى لدحض الافتراء .

يؤكد توماس كارلايل بأن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم كانت بالموعظة و الحكمة , و أن فرية نشر دينه بالسيف ليست سوى تشنيع من بعض الغربيين , و إنكار لدفاع الحق عن نفسه أمام صولة الباطل و طغيانه , يقول كارلايل " و أرى عموما أن الحق ينشر نفسه بأية طريقة , حسب ما تقتضيه الحال . أولم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا ؟ و حسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون ! و أنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف , أم باللسان , أم بأية آلة أخرى . فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة او بالنار .. فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يُهزم , و ليس في طاقتها قط أن تفني ما هو خير منها , بل ما هو أحط و أدنى " (4).

و على نفس المنوال يمضي السير أرنولد في الإشادة بالصبغة التبشيرية الخالصة للكتب التي أرسلها النبي صلى الله عليه و سلم إلى الملوك , وللبعوث الدينية التي وجهها للقبائل العربية . كما يؤكد على عدم ميل النبي لاستخدام القوة بدليل الصدود الذي قوبلت به بعض هذي الرسائل و البعوث . وهو يُرجع السر وراء الامتداد القياسي للدعوة الإسلامية إلى بساطة الدين

ووضوح تعاليمه " إن البساطة الجوهرية في الصورة التي يصاغ فيها هذا الدين , و الدليل الذي كسبه هذا الدين من إقناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعا يلتهب حماسة و غيرة ; إن هذا كله يكون الأسباب الكثيرة التي تفسر نجاح جهود دعاة المسلمين . و كان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد , خالية كل الخلو من جميع التعقيدات ,ثم هي تبعا لذلك في متناول الشخص العادي أن تمتلك , و إنها لتمتلك فعلا , قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس " (5).

أما هنري دي كاستري فيسخر من فرية انتشار الإسلام بالسيف قائلا" ولو كان دين محمد صلى الله عليه وسلم انتشر بالعنف و الإجبار للزم أن يقف سيره بانقضاء فتوحات المسلمين , مع أننا لا نزال نرى القرآن يبسط جناحيه في جميع أرجاء المسكونة" (6)

وفي معرض المقابلة بين التصورين الإسلامي و الغربي لحقوق الإنسان فيخلص الدكتور مراد هوفمان إلى أن هيكل الحقوق الإنسانية لن يتصدع طالما فُهم معنى الحقوق الإسلامية كما يفهمه الإسلام أي أن الحقوق ليست من وضع الإنسان , و إنما يجدها الإنسان فيتعرف عليها , وليس هو موجدها .وأن إنكار المرء لوجود الله يضع كافة الحقوق تلقائيا تحت رحمة الإنسان و تصرفه . فضلا عن ذلك , فإنه لم يتح لأي إنسان منذ بدء الخليقة أن يخرج علينا بنظام قانوني مقنع عام , استقاه أو استوحاه من مراقبته الدارسة للطبيعة (7)

وختاما , فإن ما ورد في هذه السطور غيض من فيض الاعتراف بعالمية الرسالة المحمدية , وسمو التشريع الإسلامي و استجابته للفطرة الإنسانية . و إن كان من فضل يُحسب لصيحات الطابور الخامس في العالم الإسلامي , فهو أنها تبعث في نفوس المسلمين حماسة الذود عن حياض الشريعة و سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم . وتوقظ همة أوشكت أن تتداعى تحت سياط الوهن .

المصادر

(1) ف.س.سوندرز : من الذي دفع للزمار ؟ الحرب الباردة الثقافية . المركز القومي للترجمة. ط4 . 2009 . ص 175 .

(2) يراجع كتاب : الإسلام في الألفية الثالثة : ديانة في صعود للمفكر الألماني المسلم مراد هوفمان .

(3) انظر مقال : السيرة النبوية رهان تربوي لحميد بن خيبش.

(4) توماس كارلايل : محمد المثل الأعلى . مكتبة النافذة . ط 2008 . ص 94-95

(5) سير .ت.و. أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . مكتبة النهضة المصرية . 1947 . ص 346

(6) الكونت هنري دي كاستري : الإسلام خواطر و سوانح . مكتبة النافذة . ط 2008 . ص 131

(7) د. مراد هوفمان : الإسلام كبديل . مكتبة العبيكان . ط2 . 1997 . ص188

رجوع للفهرس

سيرة أم ..مسيرة ؟

يكشف حضور السيرة النبوية في الخطاب الإعلامي الديني عن قصور واضح في إدراك دلالاتها وفاعليتها باعتبارها أمثل تجسيد عملي للحقيقة الإسلامية .وكان من مغبة هذا القصور أن أصبحت السيرة ملحمة تاريخية تُروى أحداثها ووقائعها وفق إطار يحدها زمانا في القرن السادس الميلادي ,ومكانا في شبه الجزيرة العربية . فانحسر مدلولها في وعي المسلم المعاصر حتى بات يؤمن بأن واجبه تجاهها لا يعدو الإلمام بالأحداث ,و الانفعال الوجداني الذي لا يُخلف أثرا على السلوك .

هذا الخلل الذي ألم بالسيرة النبوية كمادة إعلامية أمعن في فصل الإسلام ومنهجه العملي عن حياة المسلم اليومية, لتصبح الحياة المحمدية مجرد يوتوبيا أخلاقية يُنظر فيها إلى الرسول بعين الإعجاب و التقدير دون أن يؤدي ذلك إلى طاعته و الاسترشاد به.و بالتالي يعسر على المسلم اليوم التمييز بين قراءة للسيرة وفق مرجعية شرعية منسجمة مع روح الإسلام وعقيدته,وأخرى تنهل من خلفيات بدعية , سواء صوفية أو رافضية أو ضمن طرح فكري متحرر من ضوابط الشريعة .

وإذا كنا نثمن الجهود المخلصة التي تُبذل في تحديد الإطار المنهجي لكتابة السيرة , من خلال تحقيق وضبط وتمحيص المرويات , فإنها لا تمثل سوى خطوة أولى في مسار إعادة قراءتها كمدخل ضروري لفهم العقيدة الإسلامية .

يقول الشيخ محمد الغزالي " قد تظن أنك درست حياة محمد صلى الله عليه وسلم إذا تابعت تاريخه من مولده إلى وفاته,وهذا خطأ بالغ إنك لن تفقه السيرة حقا إلا إذا درست القرآن الكريم والسنة المطهرة , وبقدر ما تنال من ذلك تكون صلتك ببني الإسلام "[1].والغزالي هنا يُحيل على قراءتين مختلفتين للسيرة: قراءة مبتسرة لا تدرك الفروق الحقيقية بينها وبين سير العظماء و المصلحين ,وهي القراءة التي احتفت ببشرية الرسول صلى الله عليه وسلم , وعنيت بإبراز جوانب العبقرية و الامتياز الذاتي دون أن تلتفت لخصوصيتها ممثلة في خبر السماء. وبذلك أوهمت العقول أن تعاليمه تناسب عصره وحده ,وأن ما تحفل به السيرة من قيم ومواقف وقواعد للسلوك العملي لا ينفك عن الإطار الزمني الذي جرت فيه.

أما القراءة الثانية فترصد وقائع السيرة من حيث هي التشكل التاريخي و الواقعي لعقيدة الإسلام قرآنا وسنة ورصيدا تشريعيا [2] , ولاترى في الرسول صلى الله عليه وسلم مصلحا عظيما وحد القبائل المتنافرة فقط , بل هو " الحقيقة الكبرى للإنسانية المستخلفة في الأرض , تستمد الأجيال في أعصرها المختلفة من هديه نورا يضيء لها آفاق الحياة , ويشرح لها بقدر ما يطيق كل جيل من تحمل أمانة الله في إدراك الحقائق الكونية " [3] .وبالتالي فترجيح الغزالي للقراءة الثانية ينم عن وعي وتبصر بالبعد الوظيفي للسيرة , وامتداد وقائعها في الحياة اليومية للمسلم ,كما يضع الطرح الإعلامي الجاد أمام تحد كبير يتعلق بقراءة السيرة في ضوء

المتغيرات التي تطال المجتمع الإسلامي المعاصر, و الاستلهام الواعي للحلول و التطبيقات العملية .

وأول ما ينبغي الانكباب عليه هو توعية المسلم بالفروق الأساسية بين السيرة النبوية وغيرها من سير المصلحين و العظماء , بل وحتى سير الأنبياء السابقين .وفي هذا الصدد تجدر الإشارة للجهد النبيل الذي قدمه السيد سليمان الندوي في كتابه "الرسالة المحمدية" وهو عبارة عن ثمان محاضرات تناولت خصائص السيرة من حيث الشمول و الكمال واستيفاؤها لكل أغراض ومتطلبات المجتمع الإنساني برمته .

ثانيا,التناول الفكري الموضوعي والدقيق لعناصر السيرة ,وكشف القراءات المغرضة التي تعمد إلى اجتزاء و انتقاء أحداث بعينها ومقاربتها من زاوية إيديولوجية أو فلسفية تشوه ملابسات الحدث,وتثير في النفوس دواعي الشك و الاضطراب .

ثالثا , إن ما تشهده بعض البلاد الإسلامية اليوم من مظاهر الاحتفاء بأحداث معينة من السيرة النبوية , كمولد الرسول صلى الله عليه وسلم ,وحادثة الإسراء والمعراج ,أساء للسيرة بشكل واضح حين أكسبها طابعا ملحميا ,وبالغ في تعظيم النبي إلى حد تجريده من كل صفة بشرية . وهو ما يتعارض حتما مع مرامي التأسي و الاقتداء التي تشكل جوهر الحياة المحمدية .لذا فمن واجب الإعلام الديني اليوم التصدي لكل صور الانحياز

غير المبرر للغيبيات و الخوارق التي لا يقوم عليها دليل ,وصوغ أحداث السيرة ضمن إطار يستحضر ما هو غيبي دون أن يهمل سنن عالم الشهادة.

و أخيرا,فإن السيرة النبوية تزخر بالقيم الإنسانية و التربوية و الاجتماعية التي لا يخفى دورها الآكد في إعداد الفرد والمجتمع المسلم . و في ظل ما يعيشه العالم اليوم من ترد قيمي و أخلاقي فإن تحصين عقيدة الجيل الناشيء وإكسابه المناعة اللازمة لمواجهة الأفكار و السلوكيات الهادمة للدين و الأخلاق لا يمكن أن تنهض به الصيغ الوعظية أو الحملات المقيدة زمانا ومكانا رغم أهميتها . بل يفرض عرض تطبيقات عملية وتوجيهات منسجمة مع طبيعة النفس البشرية .وهو ما يُلقي على عاتق الإعلام الديني مسؤولية جمة في تبني طرح عصري ومتجدد للسيرة النبوية !

إن عشرات الكتب , ومئات البحوث و الدراسات الجامعية التي تناولت أدق تفاصيل الحياة المحمدية لا يجدر أن تظل حبيسة الرفوف و المكتبات,بل ينبغي استثمار هذا الجهد العلمي في رتق الهوة التي ما لبثت تتسع , للأسف ,بين الواقع المشهود وتعاليم الرسول !

يقول السيد سليمان الندوي في كتابه(الرسالة المحمدية) "إن دعاة الديانات الأخرى يُسمعون الناس مواعظ حلوة من أقوال أنبيائهم ومصلحيهم . أما دعاة الإسلام فيقدمون للإنسانية أمثلة عملية من سنة نبيهم وهديه .ولذلك كتب الله الخلود لهذه السنة وهذا الهدي "[4]

المصادر

(1) : محمد الغزالي : فقه السيرة . دار الشروق . الطبعة الثانية 2003 . ص 364

(2) : عماد الدين خليل : المستشرقون و السيرة النبوية .دار ابن كثير .الطبعة الأولى 2005 .ص 12

(3) : محمد الصادق إبراهيم عرجون : محمد رسول الله ـمنهج ورسالة ..بحث وتحقيق ـ دار القلم-دمشق . ط2 1995 . ص 18

(4): السيد سليمان الندوي : الرسالة المحمدية .دار الأمان للنشر و التوزيع .الطبعة الأولى 1995 . ص 159

رجوع للفهرس

على تخوم حراء

تصف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بوادر التلقي النبوي للوحي في عبارة وجيزة لا يكتنفها أي غموض , سواء في ذهن المسلم الموقن بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم , أو في ذهن الدارس الأجنبي المقر بالمصدر الغيبي لهذه الرسالة . ففي صحيح البخاري أنها قالت :" أول ما بُديء به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم , فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح , ثم حُبب إليه الخلاء , وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ..حتى جاءه الحق".

إلا أن النظرة العقلية الانتقادية لم تكف حتى اليوم عن النيل من هذا الحدث,وصدم الحس الديني بتعليلات واهية غايتها الطعن في النبوة ,و التشكيك في صلة محمد صلى الله عليه بالسماء !

يمكن إجمالا تصنيف الدراسات الأجنبية التي عنيت بالسيرة إلى صنفين :

* صنف غلب عليه التعصب و التحامل الأرعن على النبوة والرسالة لصدوره عن رهبان وقساوسة [1], لذا تجده حافلا بالأباطيل و الاختلاقات التي لا تستند لأي معطى تاريخي أو دليل علمي .

* و صنف ادعى الموضوعية و الالتزام بالمنهج العلمي و التاريخي المتحرر من الأحكام المسبقة, لكنه وقع في خلل منهجي خطير تمثل في إخضاع وقائع السيرة ذات المصدر الغيبي,كالوحي و الإسراء والمعراج وغيرها,للتفسير المادي المجرد.فانحسر مدلول النبوة أمام مسميات بديلة

كالعبقرية, والامتياز الذاتي,والاستلهام الفريد لتعاليم الأديان السابقة .طبعا لا ننكر وجود دراسات جادة ومنصفة, لكنها على ندرتها لم تخل من سقطات مردها إلى الجهل بالعقلية العربية و بالحدود الفاصلة بين العقل و الوحي .

وبدورها لم تسلم الكتابات العربية المعاصرة من الانحياز للموقف الغربي , ظنا منها أن الجانب المعجز في السيرة النبوية وليد هالات التقديس التي أضفتها المخيلة الشعبية على أفعال الرسول صلى الله عليه وسلم !

يكشف حديث عائشة رضي الله عنها التدرج في الإعداد الروحي الذي خص به الله نبيه , فكانت الرؤى الصادقة إشارة إلهية لبدء ورود الحقائق العليا, تلاها اختلاؤه في غار حراء شهرا من كل سنة للتحنث , والتفكر في مظاهر الكون. يقول الشيخ محمد الغزالي " في غار حراء كان محمد صلى الله عليه وسلم يتعبد , و يصقل قلبه , و ينقي روحه ,ويقترب من الحق جهده , و يبتعد عن الباطل وسعه , حتى وصل من الصفاء إلى مرتبة عالية انعكست فيها أشعة الغيوب على صفحته المجلوة " [2] .

إن بذل سنوات من التأمل في دلائل عظمة الله سبحانه وتعالى , ومعاينة ما تضج به مكة من صور الفساد الروحي , أضف إلى ذلك ما ترسب في المجتمع العربي من بقايا الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام , كفيل بأن يحث كل ذي عقل حصيف على نبذ الوثنية , والتماس الحق في غيرها . فكيف بمن اصطفاه الحق سبحانه لتلقي الرسالة ؟ . إلا أن بعض الدارسين , سواء من المستشرقين أو دعاة العقلانية , حرصوا على تحليل واقعة الاختلاء هاته

تحليلا مراوغا , ينفي حدوث الوحي .يعلق الكاتب الفرنسي (إتيين دينيه) على سذاجة هذا الموقف بقوله " حقا إنه ليدهشني أن يرى بعض المستشرقين أن محمدا قد انتهز فرصة الخلوة هذه , فروى و رتب عمله المستقبل. بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك , فوسوس بأن محمدا ألف في تلك الفترة القرآن كله! أحقا لم يلاحظوا أن هذا الكتاب الإلهي خال من أية خطة سابقة على وجوده , مرسومة على نسق المناهج الإنسانية , وأن كل سورة من سوره منفصلة عن غيرها , وخاصة بحادثة وقعت بعد الرسالة طيلة فترة تزيد على عشرين عاما , و أنه كان من المستحيل على محمد أن يتوقع ذلك و يتنبأ به ؟ ولكنهم في جهلهم بالعقلية العربية لم يجدوا غير ذلك تعليلا لهذا التحنث الطويل " (3)

أما الفرية الثانية التي روجوا لها للتقليل من شأن الوحي فهي تأثره المبكر بتعاليم المسيحية,ولجوءه للخلوة في غار حراء لتنسيق معارفه و خلاصة محاوراته مع الرهبان بما يُلائم عقلية المجتمع المكي ! و بالتالي لا يعدو القرآن أن يكون طبعة عربية للإنجيل , منقحة ومزيدة ! وهي فرية تتردد منذ المستشرق يوحنا الدمشقي الذي كان معاصرا للنبي صلى الله عليه وسلم , وصولا إلى الباحث و المؤرخ العربي هشام جعيط (4) !

ولإضفاء الشرعية على هذا الطرح , سعى كل باحث إلى اختلاق مصدر لهذا التأثير,وتغذية الواقعة بمرويات من نسج خياله .فتارة يكون المصدر هو بحيرا الراهب,وتارة أخرى ورقة بن نوفل,وثالثة غلام نصراني يمتهن

الحدادة بأسواق مكة ! ومن أعيته الحيلة نسب الفضل للأديرة المنتشرة على امتداد طرق القوافل إلى آسيا !

وقد أفضى بهم القول بهذه الفرية إلى اعتبار الوحي الإلهي مجرد إيحاء داخلي , وثمرة تفاعل بين تجربة التأمل و الخبرات التي تم تحصيلها في السابق! فيخلص هشام جعيط بعد تحليله لهذه التأثيرات المسيحية المزعومة إلى أن " كل ما اختزنه محمد في ذاكرته , سيرجع عن طريق الوحي في حالة الإيحاء الداخلي عن طريق الصوت الداخلي الملهم في فترات الانخطاف , و الذي اعتبره محمد بكل حماس وحيا إلهيا من الخارج"! (5) .

و الحقيقة أن هذه الكتابات المتحاملة بشكل سافر على حادثة الوحي تصدر عن عقلين : عقل آثم وعقل قاصر ! أما العقل الآثم فلا سبيل للرد عليه , لأن حُجب التعصب و المكابرة تصده عن مراجعة موقفه .ولو أمكن ذلك لكان فيما ساقه المنصفون من أدلة وحقائق غُنية له وكفاية.

بينما يُغفل العقل القاصر في اعتراضه على واقعة الوحي ثلاث حقائق أساسية :

*** الحقيقة الأولى :أن العقل وحده عاجز عن النهوض بمهمة استكمال رحلة البحث عن الحقيقة العليا لأن قدرته على التأمل و الاستقصاء تقف عند حدود عالم المادة. فلزم إذن أن يُؤيد بالوحي الذي يُعرفه كنه الحقيقة .يقول**

الدكتور محمد شيخاني" إن الوحي ماهو إلا ري لما في النفوس من ظمأ محرق للوصول إلى الحق , وقد أضاء الوحي للجذوة المقدسة في أغوار النفس دروب الحياة الصحيحة لتصل إلى الحق الكامل بأسهل طريق,دون أن يتحطم العقل في كثرة افتراضاته دون جدوى .وما كان الوحي إلا رحمة إلهية يشير إلى العقل التائه : هذا طريق الحق" (6) إلا أن هذه العدةالإلهية اختص بها الأنبياء دون غيرهم ليكتمل شرف التبليغ عن الله .

* الحقيقة الثانية : أن الإعداد الروحي للأنبياء يختلف قطعا عما درجنا على مطالعته في سير العباقرة و المصلحين الكبار من جهد معرفي متواصل, وعكوف على تحصيل الخبرات , وكلف دائم بالخروج من دائرة المحسوس ,للتحليق بالخيال في آفاق أرحب ,فما تتطلبه النبوة هو تجريد القلب من الشواغل , و الهمة من الصغائر, والنفس من الانجذاب المفرط لدنيا الشهوات و الرغبات, لتقوى على النهوض بعبء الرسالة .

ومعلوم أن كل عظيم أو عبقري قُدر له النبوغ في مجال ما , فإن ميوله و اهتماماته تتكشف منذ الطفولة صوب هذا المجال أو ذاك, ثم يسعى إلى تغذية ميوله بالدراسة والبحث .ولوأن العقل القاصر استحضر هذا المعطى عند وقوفه بانزعاج أمام أميةمحمد صلى الله عليه وسلم , لتورع عن حشد فرضيات سخيفة حول مصدرية القرآن .

* الحقيقة الثالثة : أن في الوجود الإنساني مُمهدات للإعتراف بالنبوة , وتلقيها للحقائق العليا من غير وساطة العقل أو الحواس .فالبحث العلمي بعد

تحليله للعبقرية وسلوك العباقرة أقربوجود نفحة إلهية أرقى من القوة العلمية , ولايمكن تعليلها بقوانين .يقول الدكتوربيير جانيه "العبقرية قبل كل شيء إلهامات ,وأعني بذلك حالات عقلية لا يستطيع الحس الباطني ولاالذات نفسها أن تدعي أنها تملكها .فهي تحدث على غير علم منا بها ,ولاتستطيع إرادتنا ان تُوجدها" (7).فإذا كانت العبقرية ,وهي أرقى مظهر للإبداع الإنساني , هبة خارقة للعادة ألا تقوم بذلك شاهدا على إمكان الوحي, وتلقي المعرفة الإلهية من غير المنافذ المعهودة ؟

أما الشاهد الثاني فهو ما تُظهره الكائنات الحية من سلوك يستحيل أن يُنسب إلى إدراكها القاصر, وقد قرر علماء الطبيعة أن هذه المعارف الفطرية لا يُمكن أن تصدر إلا عن إلهام رباني يوجهها لما فيه بقاء نوعها .فإذا صح هذا الإلهام لدى الحشرات ,وهي أدنى الكائنات, أيجوز نفيه عن الإنسان وهو أسمى الكائنات ؟!

إن شواهد الحياة المحمدية قبل البعثة تدل على أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن يرقب وحيا,أو يُعد نفسه لزعامة .وأن تلقي الوحي ليس فعلا اختياريا يُعد له الرسل العدة مسبقا بالتحصيل والخبرة,إنما هو التدبير الإلهي الذي يُحدد أوان سُطوع شمس الإيمان على ظلمات الجهل و الضلال ,وإعلان رسالة التوحيد سواء من طور سيناء..أو تلال الجليل..أو غار حراء !

المصادر

---

(1) :أبرز من مثل هذا الاتجاه القس لامنس في كتابه " مهد الإسلام"

(2) : محمد الغزالي .فقه السيرة .دار الشروق.ط 2. 2003. ص 68

(3) : إتيين دينيه .محمد رسول الله . دار المعارف 1986. ص 107

(4): أنظر : هشام جعيط .تاريخية الدعوة المحمدية ج2 .دار الطليعة .ص 152 ومابعدها

(5) : هشام جعيط .مرجع سابق.ص 155

(6): د.محمد شيخاني. هل محمد عبقري مصلح أم نبي مرسل ؟.دار قتيبة .ط2 1995. ص 51

(7) : محمد فريد وجدي . السيرة النبوية تحت ضوء العلم و الفلسفة .الدار المصرية اللبنانية .ط1 1993. ص 51

رجوع للفهرس

أبـــو رغـــال

و أنت تجدد صلتك بالسيرة النبوية باحثاً عما يكتنف أحداثها الكبرى من دقائق و تفاصيل,يستحوذ على عقلك وقلبك انطباع سرعان ما يتحول إلى قناعة راسخة,بأنك لست أمام كتابة تاريخية وتوثيق لأحداث مضت , بل أمام مرآة عاكسة لما يضج به واقعك اليومي من فواجع و مآسي ,خاصة تلك التي يغذيها الخبث الإنساني .

في خبر أبرهة الحبشي و حملته الخرقاء لهدم الكعبة ,يطالعنا نموذج للعربي الخائن ,و للتحاسد القبلي الذي لا يتورع عن تحطيم المقدس للإنفراد بأسباب القوة ,سياسية كانت أو اقتصادية .و الخبر,كما أورده ابن هشام في السيرة ,مفاده أن جيش أبرهة لما بلغ مدينة الطائف خرجت إليه ثقيف بزعامة مسعود بن معتب يعلنون ولاءهم .وغالوا في استعطاف أبرهة فقالوا :أيها الملك,إنما نحن عبيدك سامعون مطيعون , ليس عندنا لك خلاف و ليس بيتنا هذا الذي تريد, يعنون بيت اللات ,إنما تريد البيت الذي بمكة,ونحن نبعث معك من يدلك عليه " وكان هذا الدليل هو أبو رغال الذي قادهم إلى المغمس على مشارف مكة , وهناك وافت المنية أبا رغال ,وسخط العرب عليه فاعتادوا رجم قبره !

قيل في تبرير هذا الموقف بأن مرده للتنافس التجاري الذي كان محتدما بين قريش و ثقيف,وأن هذه الأخيرة كانت تحسد قريشا على مكانتها الاعتبارية في وجدان العرب قاطبة,وعلى نفوذها السياسي و الاقتصادي . بل إنها عمدت إلى اتخاذ بيت لأعظم أصنامها,وهو اللات ,شبيه ببناء الكعبة !

و الحق أن الخيانة خيانات,وأن المجتمع العربي آنذاك لم يكن نسيجه الأخلاقي متينا إلى الحد الذي تتورع فيه النفوس عن السطو و انتزاع ما في يد الضعفاء بالقوة أو الحيلة.شاهدنا على ذلك ما تمتع به المصطفى صلى الله عليه وسلم من سجايا و شمائل جعلته محط ثقة ومستودع لأمانات القرشيين و غيرهم حتى لُقب بالصادق الأمين.إلا أن للخيانة حدا لا يحتمل أي مجتمع إنساني أن تتجاوزه , لذا لم يجد العرب , وهم الغارقون آنذاك في وحل الوثنية و الهبوط الأخلاقي ,للتعبير عن سخطهم على خيانة ثقيف سوى أن يرجموا قبر دليلها المشؤوم !

و اليوم يطل علينا أبو رغال بسيرته البشعة ليحل في ذوات تحابي و تهادن أعداءها بالتطوع لهدم أسس دينها,وردم ثوابتها و قيمها,و تفتيت مقومات هويتها وحضارتها .

يطل علينا في صورة المثقف حين يتخلى عن دوره النبيل ورسالته القيمية التي زعم أنه منذور لأجلها, فيسحب روحه الناقدة ,وقلمه المسائل والمجادل من المعترك ليغازل الانحلال والاستلاب وقبضة الفساد التي تخنق المجتمع المعاصر. نعم,يصبح "رغاليا" حين يعلن اليوم دون مواربة بأن لا محيد عن طرح عباءة الدين و القيم لعبور الفجوة الحضارية التي تفصلنا عن الآخر , هناك ! وحين ينحاز لمصالحه النفعية فيزكي الأوضاع الشائهة , و يغذي الاحتراب الفكري الحاصل بآراء ومواقف تلتبس معها الأفهام و يُمسي الحليم حيران . فلاعجب أن تكون خيانات بعض المثقفين سببا لجمود الثقافة

العربية و انكفائها على نفسها بعيدا عن التحولات العميقة التي يشهدها العالم,هذه الثقافة التي يشبهها اليوم المفكر العربي الدكتور سيار الجميل برغوة متحركة فوق المياه الراكدة ,سِمتها :بطء حركة البحث العلمي,وضعف الترجمة,وجامعات تمنح الشهادات والترقيات كما تمنح الحلوى للأطفال !

و يطل علينا أبو رغال في صورة السياسي حين يُحيل أفق انتظار المواطن بؤسا و يأسا و ضبابا يعيق الفهم و السير .و حين تعوزه الحكمة لتفادي أخطار سياسية فلا يتورع عن إشعال الحرائق في البلد !

إن من يتفحص مفردات الخطاب السياسي الرائج اليوم في بلداننا الإسلامية,و يستعرض صيغ التدافع بين الفرقاء يُدرك حجم الهبوط الأخلاقي وارتخاص القول السياسي ! فلا مباديء صائنة عن الزيغ ,و لا قيم مؤطرة للعبة,وإنما سعي للتواطؤ و الصدام و إفراغ المحاولات الجادة للقلة المُصلحة من بلوغ الهدف الذي يُفترض أن السياسة ترمي إليه, وهو خدمة الإنسان و إدارة المجتمع. بل إن بعض الساسة ممن أعياهم نصب الكمائن لم يخفوا حماسهم لدعوة أبرهة الجديد كي يتدخل في شؤون بلدانهم , و يمنحهم بذلك شرف اصطحابهم أدلاء في مسيرة الهدم الحضاري !

تنتعش "الرغالية " إذن في عالم السياسة حين تتوارى القيم و يخبو أوارها , فلا ينفع ذكاء أوثقافة للتقليل من حجم الخسائر .يقول غوستاف لوبون " يجب ألا ننسى أن حدة الذكاء مهما كثرت والثقافة مهما سمت والرشاقة

مهما علت لا تسد فراغا يقع في صفات الخلق الأساسية,والصفات الخلقية التي تقوم عليها سيادة الأمة هي ضبط النفس و الرزانة و تحمل التبعات و الميل إلى الاتحاد و الحزم و الشجاعة,فإذا ضعفت هذه الصفات عجزت الأمة عن سياسة نفسها وعن منع الأمم الأجنبية عن التدخل في شؤونها " [1]

و يطل علينا أبو رغال في صورة الإعلامي حين يسحبه بريق الشهرة بعيدا عما تُلزمه به أخلاق مهنته من تجرد وموضوعية وولاء للحقيقة . فيصبح ديدنه خلط الأوراق و التشكيك في النوايا و المبادرات , وتفويت الضمير المهني لمن يدفع أكثر.إن المؤسسة الإعلامية تتقلد اليوم مكانة شبه مقدسة لأن الإعلام لا يقوم بمجرد نقل رسائل لكنه يسهم بشكل جوهري في تكوين الظروف الاجتماعية و الأخلاقية و الوجدانية لتلقي الرسائل [2] وهنا مكمن الخطورة إذا ما انتعشت الرغالية في نفوس القائمين على الصرح الإعلامي . ولعل الأحداث الجسام التي واكبت الربيع العربي قد حررت أذهان الكثيرين من أكذوبة الحيادية و البعد التحرري للإعلام لنقف, وبشكل مأساوي, شهودا على واجهة للخيانة و التدليس .

و يطل علينا أبو رغال في صورة العسكري, و الموظف, و الفنان, و رجل الأعمال ليرسم لوحة قاتمة لما يؤول إليه المجتمع الإنساني حين ينضب في النفوس معين القيم .

إن الخيانة متوطنة في المجتمع الإنساني منذ الأزل , و قصص اختراقها لنسيج القيم السائدة تملأ رفوف المكتبات . غير أنها لا تكتسي بُعدا ناسفا إلا

حين يستمرئها المجتمع , فترتخي قبضة الحماية القانونية للنظام الأخلاقي , و يصبح "أبورغال" عنوان حركة حقوق جديدة !

المصادر

1 – غوستاف لوبون : روح السياسة . دار كلمات عربية للترجمة و النشر . القاهرة 2012 . ص 248

2- ستيفن كولمان – كارين روس : الإعلام و الجمهور . دار الفجر للنشر . القاهرة 2012 ص 81

رجوع للفهرس

رسائل من بدر

غزوة بدر..

أول تجربة عسكرية للرعيل الأول من المسلمين,ولحظة الفرقان بين حق يؤسس دولته وباطل ألقى بصناديده إلى جوف الصحراء !

نستحضر ذكراها اليوم ساعين لرصد امتداداتها في واقع الأمة, باحثين في ثناياها وتفاصيلها عن رسائل تسعف المسلم المعاصر في تفاعله اليومي مع صور الباطل وتجلياته.ولعلنا اليوم أحوج ما نكون إلى قراءة متجددة لا تقف عند استعادة الحدث كقطعة أثرية لامزية لها سوى إثارة الإعجاب والحنين !

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان,ومعه القلة المؤمنة المستضعفة,لاعتراض قافلة أبي سفيان واسترداد ما نهبته قريش من أموال المهاجرين ومتاعهم.غيرأن المشيئة الإلهية هيأت لما هو أعظم من الإيقاع بقافلة واسترداد ممتلكات, فقد تطورت الأحداث لتفضي إلى مواجهة غير متكافئة أسفرت عن نصرعظيم للقلة المؤمنة,وعن رسائل تستنهض عزيمة المسلمين كلما لاحت بوادر الالتحام بقوى الباطل على شتى الجبهات,عسكرية كانت أواقتصادية أوفكرية أوإعلامية !

الرسالة الأولى: القوة المادية لا تعادل قوة الروح

تنقل إلينا كتب السيرة نماذج من الحوار والمشادة الكلامية بين صناديد قريش قبل المعركة, تعكس التردد والوهن النفسي وتضارب الآراء بشأن الجدوى من القتال بعد أن تمكن أبوسفيان من الإفلات بالقافلة. يأبى أمية بن

خلف الخروج فيستفز عقبة بن أبي معيط رجولته قائلا: تجمر (تبخر) فإنما أنت من النساء, فيرد أمية: قبحك الله وقبح ما جئت به, ثم يتجهز للخروج مكرها.ويقوم عتبة بن بن ربيعة خطيبا فيقول: "يا مشعر قريش, إنكم والله ما تصنعون أن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا,والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه,قتل ابن عمه أوابن خاله أو رجلا من عشيرته.فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب,فإن أصابوه فذلك الذي أردتم,وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تتعرضوا منه ما يريدون." لكن الحقد الذي يضطرم في قلب أبي جهل يحمله على تحريض عامرابن الحضرمي ليصرخ مناديا بالثأر فتجتمع النفوس مجددا على المواجهة.

كانت قريش تتقدم للمعركة بصفوف مهزوزة ونفوس أوهنها التردد والتخاذل,فلم يثبت جيش يناهز عدد مقاتليه ألفا إلا ساعة من نهار أمام قلة مؤمنة صابرة بالكاد تبلغ ثلثه! لكنها قوة الروح التي لا تكافئها قوة المادة ,يقول الشيخ محمد أبوزهرة في كتابه(خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم)ذلك أن قواد الحروب في القرنين الحاضروالسابق قدروا أثر القوة الحربية المادية بالنسبة للقوة المعنوية بواحد إلى ثلاثة.لكنه تقدير أهل الخبرة وهم يخطئون ويصيبون,أما تقدير الله تعالى فهو أعلى من ذلك إذ قدر الواحد من أهل الإيمان في حال القوة التي لا ضعف معها بعشرة من أهل الكفر فقال تعالى " ياأيها النبيء حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون

صابرون يغلبوا مائتين وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون" سورة الأنفال: 66

الرسالة الثانية: الحرب في ديننا فضيلة

يأبى الإسلام إلا أن يحفظ كرامة الإنسان المخالف في العقيدة حتى في ساحة المعركة,فينهى عن التمثيل بالجثث وتشويه معالمها,كما ينهى عن تركها فريسة للسباع والطير.والرسول صلى الله عليه وسلم الذي جاء بوحي يكرم الإنسان حيا وميتا حرص عقب المعركة على تفعيل هذا المبدأ السامي حين أمر أصحابه بدفن جثث القتلى من قريش في بئر جافة تدعى القليب,إلا أمية بن خلف الذي انتفخت جثته في درعه واستعصى عليهم إخراجها ,فألقوا عليها ما غيبها من التراب والحجارة.إن الإسلام حين أباح الحرب لم يغفل عن إحاطتها بسياج من الرحمة لم تشهد له الإنسانية نظيرا حتى في ظل ما يسمى بأحكام القانون الدولي,ذلك أن الأحكام الإسلامية الحربية, برأي الدكتور عفيف طبارة في كتابه (روح الدين الإسلامي), تتفق مع أحكام القانون الدولي في كثير من المواضع,إلا أنها تخالفها من جهة أنها أحكام دينية شرعها الدين ويقوم بتنفيذها إيمان المسلمين,وأما أحكام القانون الدولي فليس لها قوة تنفيذية تكفل إمضاءها. ويكفي أن يتابع المرء ما تنقله الفضائيات من مشاهد السحل والتعذيب والتمثيل والإحراق ليدرك البون الشاسع والهوة المؤلمة بين منظومتين حضاريتين !

الرسالة الثالثة: المساواة ورقة رابحة

خرجت القلة المؤمنة من المدينة وليس معها من الإبل غيرسبعين بعيرا يتعاقبها الإثنان والثلاثة والأربعة, فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدق مثال لمساواة القائد بجنده في الصعاب.عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:" كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير.كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:وكانت عقبة رسول الله فقالا: نحن نمشي عنك,فقال:ما أنتما بأقوى مني,ولاأنا بأغنى عن الأجر منكما ".إن المساواة حين تفرض نفسها كمبدأ يحكم العلاقة بين الطرفين لايحتاج الجند إلى ما يشحذ الحماس في صدره لمواجهة الصعاب.والرسول صلى الله عليه وسلم في تقريره للمساواة كقيمة إنسانية يحرر النفوس من بقايا التفاضل المصطنع الذي انبنت عليه العلاقات الاجتماعية قبل الرسالة.لكن إذا كان الإسلام يلغي التفاضل في الخلق والنشأة وما يترتب عنه من استعلاء,إلا أنه يقره فيما يندرج تحت مسؤولية الفرد واختياره وقدراته,فيظل قائما في مضمار التسابق لفعل الخيرات والمبادرة للطاعات واجتناب المنهيات.إنها مساواة مقيدة بنصوص الشرع التي لا تصادم طبيعة الأشياء:

قال تعالى (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار) سورة ص:27

وقال سبحانه (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) سورة الحديد: 10

وقال عز من قائل (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون) سورة السجدة: 18

الرسالة الرابعة: سقف الإيمان المثالي

تحقق في بدر الامتثال العجيب للمبدأ والمنهج على حساب القرابة والرحم,فكانت تجربة عز نظيرها وامتحانا للقلوب حازت القلة المؤمنة بفضله من المكانة ماليس لغيرهم ,حتى عُدت من المفاخر قولهم: فلان البدري!

في ساحة المعركة التقت سيوف الأبناء والآباء والإخوة وأبناء العمومة والأصهار,لكن وشيجة الإيمان أوثق وأعز من أي دم أو قرابة.قتل أبوعبيدة أباه المشرك عبد الله بن الجراح,وقتل مصعب بن عمير أخاه عُبيدا,وأوصى الصحابي الذي أسر أخاه أباعزيز أن يوثقه جيدا فإن أمه ذات متاع ولعلها تفديه, فيستغرب أخوه هذا الجفاء قائلا :أهذه وصاتك بي؟ فيرد مصعب: إنه أخي دونك ! وبعد أن أسلم عبد الرحمن بن أبي بكر,وكان في صف الكفار يوم بدر,قال لأبيه: يا أبت لقد لقيتك يوم بدر فلويت وجهي عنك,فيرد الصديق قائلا: أما والله لو رأيتك في المعركة لقتلتك !

إن إيثارالعقيدة والمبدأ والقضيةعلى الأب والإبن والأخ لايمكن أن يصدرإلاعن نفوس تشربت سموالمعاني والمباديء والقيم التي جاءت بها الرسالة الخالدة. وعندما يكون الإسلام قضيتك حقا,يقول الدكتور أحمد خيري

العمري,ليس كشعارات ترددها,أوكتب تقرؤها ومحاضرات ترتادها فإنه يصل إلى هذه الدرجة, درجة أنك تفضل(القضية)على ولدك حرفيا !

الرسالة الخامسة: الدعاء سلاح

اصطفت القلة المؤمنة في تنظيم عسكري فريد لم تشهده حروب العرب, ثم رجع النبي صلى الله عليه وسلم إلى العريش الذي بُني له,وأقبل على ربه يتضرع إليه ويناشده النصر الذي وعده قائلا: (اللهم أنجز لي ما وعدتني,اللهم إن تهلك هذه العصابة فلا تُعبد في الأرض أبدا),ويستغيث ربه حتى يسقط رداؤه, فيرده أبو بكر على منكبيه وهويقول مشفقا: يارسول الله كفاك مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك.

يحيلنا هذا المشهد المؤثر على تلك المرحلة المفصلية في أي عمل إنساني.مرحلة يبلغها المسلم بعد أن استوفى كل الجهد والحركة في نطاق عالم الأسباب ليرفع كفيه إلى الله عز وجل معترفا بعجزه عن إتمام الصرح دون عون وتأييد ومباركة من خالقه.وهذا الإقرار بالعجز والافتقار والذلة يحمل المسلم على الاستحضار الدائم للقدرة والمشيئة الإلهيتين ,فلاتلقي به دنيا الأسباب في مهاوي اليأس,ولا يستقل بإرادته في التصرف إلى الحد الذي ينفلت به من قيود المنهج.

لا شك أن هناك رسائل أخرى في طيات هذه الملحمة الإيمانية الفريدة يحتاج المسلم المعاصر إلى فك أسرارها وتعرف معانيها وامتداداتها في واقعه

اليومي.وفي ظل النكسات المتتالية التي يرزح تحتها عالم المسلمين اليوم ,تعوزنا القراءة المتجددة للسيرة النبوية وفق منظور يطابق الخطوة مع الطريق,ويستعيد البوصلة !

رجوع للفهرس

عالمية الرسالة في ميزان الاستشراق

تبدو الحاجة ملحة إلى استعادة مقولات الاستشراق , لا من حيث كونه تيارا فكريا مخالفا للرؤية الإسلامية فحسب , بل لحرصه على إمداد النخبة المثقفة بالتصورات و المواقف المحرضة على تشويه الفكرة الإسلامية . فما نتابعه اليوم من هجوم شرس على ثوابت الدين , و انتقاص من قدر الرسالة المحمدية ما هو إلا ثمرة ممارسة استشراقية امتدت لبضعة قرون تحت مظلة الكنيسة . ومن بين المقولات المغرضة التي تثار بين الفينة و الأخرى , تلك التي تشكك في عالمية الرسالة , و تسعى جاهدة لتقليم أظافر المد الإسلامي بزعم أنها وقف على العرب وحدهم !

معلوم أن حصر نطاق الرسالة في شبه الجزيرة العربية يؤدي حتما إلى القول بأن الامتداد خارجها أملاه الطموح السياسي لا الجهاد الدعوي . بل إن تنويه بعض المستشرقين بالتوحيد كجوهر للديانات الثلاث يرمي بالخصوص إلى تجريد الإسلام من أية إضافة نوعية باستثناء توحيده لقبائل البدو, وإنقاذ بلاد العرب من حالة التفكك المزمن !

رغم حرص النبي صلى الله عليه و سلم على أن تظفر مكة بشرف الاستجابة لداعي الحق قبل غيرها من البلدان , إلا أن البعد العالمي للرسالة كان حاضرا وبقوة سواء من خلال التصريح به في أوائل ما نزل من الوحي , أو عبر الأسماء التي شكلت نواة الجماعة الإسلامية الأولى من غير العرب . لذا فإننا لا نملك إلا الاستغراب مما خلص إليه الطرح الاستشراقي الذي يزعم تعلقه بمنهجية علمية جادة , حين يُرجع سر انتشار الإسلام خارج

حدوده العربية إلى بروزه آنذاك كقوة سياسية في المشهد العالمي , لا لكونه الرسالة الخالدة حتى قيام الساعة !

في هذا الباب يندرج كتاب " سيرة النبي محمد" للراهبة البريطانية كارين أرمسترونغ,والذي قوبل بالحفاوة في المشهد الثقافي العربي لتزامن صدوره مع قضية "آيات شيطانية" وما خلفته من موجة عداء للإسلام في الغرب.إن هذه الباحثة التي وُصف خطابها بالهاديء و الموضوعي و الموثق [1] تشطب بجرة قلم كل ما قيل , ويُقال , عن الطبيعة العالمية للإسلام . فغاية ما كان يطمح إليه محمد , صلى الله عليه وسلم , هو إبلاغ رسالة القرآن للقبائل التي تستوطن شمال المدينة ! أما خبر الرسائل التي وجهها لملوك العالم فلا يعدو برأيها أن يكون رواية مدسوسة لا أصل لها في المصادر القديمة . وحتى إن صح هذا الخبر فالقصد من ورائه هو القبول بمحمد صلى الله عليه وسلم ممثلا شرعيا لقبائل العرب"نكاد نقطع بأن هذه الرواية مدسوسة لأننا لا نملك الدليل على أن محمدا كان يرى أن الإسلام دين عالمي, وأنه سوف يلغي ما أنزل على أهل الكتاب . كان الإسلام حتى تلك الفترة دينا لأبناء إسماعيل , مثلما كانت اليهودية دين أبناء يعقوب.واستمر المسلمون إلى ما بعد وفاة نبيهم بنحو مائة عام,يعتبرون أن الإسلام دين منزل على العرب وحسب.وإذا صدقت رواية سفراء النبي إلى حكام البلدان المجاورة فقد كانت تعبيراعن الثقة الجديدة التي اكتسبها محمد, وعن اتساع نطاق رؤيته " [2] ثم تمضي المؤلفة في استعادة جملة من الاعتراضات والشكوك, متأثرة

بمنهج مواطنها " مونتغمري وات" القائم على التشكيك في الواقعة التاريخية,ثم هدمها و استبدالها بأحكام لا تدعمها حقائق السيرة.فهذا الأخير بدوره,بذل وسعه لإثبات إقليمية الدعوة الإسلامية.وألغى كل النصوص و المصادر الموثقة ليتخذ من مزاجيته وارتيابه منهجا للتعامل مع السيرة. بل وذهب في بعض مؤلفاته إلى أن انتشار الدعوة خارج النطاق العربي لم يكن مخططا له من لدن الرسول صلى الله عليه وسلم بقدر ماكان استجابة لإغراءات المكاسب الدعوية "– إن محمدا- اعتبر نفسه أول الأمر مرسلا إلى قومه القرشيين,ثم أخذ شيئا فشيئا,وبدرجات لا تبدو بوضوح في القرآن , يتراءى له هدف أوسع لرسالته.دعا قبل الهجرة بعض أفراد القبائل البدوية إلى الإيمان بالله عدا مفاوضة سكان المدينة , ثم احتلت فكرة الأمة القائمة على أساس ديني مكان الصدارة بحلول الهجرة " [3].وما يخلص إليه "وات" في استقرائه المتحيز لا يعدو أن يكون صدى لما أدلى به سلفه الاسكتلندي "وليام موير" حول ارتباط عالمية الرسالة بظروف و متغيرات سياسية لا يحكمها أي عامل دعوي . ففكرة العالمية , برأيه , ظلت حبيسة تفكير غامض , لأن الاهتمام كان موجها طيلة الحياة النبوية لبلاد العرب [4] .

الملفت للنظر أن ما يوحد الرؤية الاستشراقية لهذا الفصيل من الباحثين هو الافتئات الجاهز على الإسلام , و الانطلاق من أحكام مسبقة ثم الانكباب على البحث في المراجع و المصادر العربية عما يُعضدها و يُسندها , حتى لو

تطلب الأمر لَـَي أعناق النصوص و تحريف الوقائع . أما عند غياب السند فلا يتورعون عن إلقاء الكلام جزافا دون أي دليل نقلي أو برهان عقلي .

في المقابل أبدى التيار المعتدل إقراره بعموم الرسالة المحمدية . لا بالاتكاء على منطوق الآيات و الأحاديث الشريفة فحسب , بل لما يمتاز به الإسلام من بساطة و شمول و استجابة للفطرة الإنسانية . وفي هذا الصدد يؤكد توماس أرنولد أن للعالم أجمع نصيبا في رسالة الإسلام , و أن الصورة العملية لهذا البُعد تمثلت في الكتب التي بعث بها محمد صلى الله عليه وسلم إلى عظماء ملوك ذلك العصر , و التي تدل دلالة أكثر وضوحا و أشد صراحة على ما تردد ذكره في القرآن من مطالبة الناس جميعا بقبول الإسلام (5) .

و بأسلوب المنصف الذي يفتح عقله وقلبه للحقيقة المجردة , ينبري هنري دي كاستري لدحض الصورة النمطية المشوهة التي ألحقها الكتاب الأوربيون بالإسلام و النبوة.إذ يرى أن تبرير سرعة تقدم الإسلام و انتشاره في الأقطار بكونه غضبا إلهيا على الكنيسة يظل تبريرا غير لائق ولا تسنده وقائع التاريخ. فالانتشار العظيم للإسلام كديانة عامة يرجع بالأساس إلى مواهب التأثير التي أودعت في القرآن الكريم " إننا لا نعلم للإسلام "مجمعا دينيا " و لا رسلا و لا أحبارا وراء الجيوش و لا رهبنة بعد الفتح .فلم يُكره أحد عليه بالسيف , و لا باللسان . بل دخل القلوب عن شوق و اختيار,وكان نتيجة ما أودع في القرآن من مواهب التأثير و الأخذ بالألباب" (6)

و على نفس المنوال يمضي هوبير ديشان [7] في التأكيد على ما يتمتع به الإسلام من قوة دعوية ذاتية أهلته لأن يكون رسالة للعالم بأسره " إن انتشار دعوة الإسلام في أغلب الظروف لم تقم على القهر, وإنما قامت على الإقناع الذي كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا و طولا إلا إيمانهم العميق بربهم.وكثيرا ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمي البطيء من قوم إلى قوم , وقد يسر انتشارالإسلام أمر آخرهو أنه دين فطرة بطبيعته, سهل التناول ,لا لبس ولا تعقيد في مبادئه,سهل التكييف والتطبيق في مختلف الظروف" [8]

لقد أثبتت الممارسة الاستشراقية المعاصرة أنها لازالت أسيرة الروح العدائية للإسلام , و قلة هم من انتصروا للحقيقة المجردة عن الهوى .. حقيقة أن الإسلام ديانة عالمية وأن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين وليس مجرد قائد لحركة البدو المقهورين !

ولن يتسع المجال لحوار حضاري يتم تدبيره وفق رؤى و قناعات يحكمها الاستعلاء .

المصادر

(1) راجع مقدمة كتاب " سيرة النبي محمد " لكارين أرمسترونغ . منشورات سطور .القاهرة 1998 . ص7

(2) المرجع السابق : ص 314 .

(3) عبد الله محمد النعيم : الاستشراق في السيرة النبوية .المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1417 هـ .ص 40

(4) محمد عبد العظيم علي : السيرة النبوية و كيف حرفها المستشرقون .دار الدعوة 1994 . ص 51

(5) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام . مكتبة النهضة المصرية .1947 . ص 34

(6) هنري دي كاستري : الإسلام خواطر و سوانح . مكتبة النافذة . 2008. ص 75

(7) كاتب فرنسي و حاكم المستعمرات الفرنسية بافريقيا حتى عام 1950

(8) محمد فتح الله الزيادي : ظاهرة انتشار الإسلام . المنشأة العامة للنشر و التوزيع . طرابلس 1983.ص 222 .

رجوع للفهرس

رسائل ..إلى الروضة الشريفة

لا يُذكر العطاء المغربي في حقل السيرة النبوية إلا ويأتي كتاب "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" لمؤلفه القاضي عياض اليحصبي في المقدمة .فالمُصنف يُعد بحق مفخرة في أسلوب تناوله للشمائل النبوية , و اعتماده منهجا مغايرا في تقريب أوصاف النبي الكريم وجرد حقوقه , وتأليف القلوب على محبته .

و إذا كان الكتاب بالغ الحضور في الوجدان الشعبي المغربي إلى الحد الذي جعل بعض الأعيان يُرتبون أوقافا لقراءته , فإن القاضي عياض رحمه الله أحرز قصب السبق في فن نثري لا يقل فرادة وتميزا عن تدوين الشمائل العطرة ألا وهو فن الرسائل النبوية .

يُحيلنا هذا اللون الأدبي على المحبة العظيمة التي يُكنها المغاربة للرسول صلى الله عليه وسلم و آل بيته .وهي محبة وسمت تاريخهم بميسم خاص منذ دخول المولى إدريس الأول أرض المغرب فرارا من اضطهاد العباسيين . يقول الأستاذ فريد الأنصاري رحمه الله " ما ضرب أحد مثالا أرقى و لاأمثل مما ضربه المغاربة في حب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم, وهل كان تنازل عبد الحميد الأوربي عن كرسي الحكم لفائدة المولى إدريس – حفيد رسول الله- إلا محبة في المصطفى ؟ وكفى بذلك حدثا تاريخيا عجيبا , لا تسعه الكلمات وصفا , ولا تحيطه العبارات كشفا للدلالة على تلك المحبة العليا التي سكنت وجدان الإنسان المغربي فأعطى لآل بيت رسول الله دنياه كلها !" (1)

ومنذ أن تحددت معالم الشخصية الثقافية للمغرب , بعد توحيده سياسيا ومذهبيا على يد المرابطين, انبرى العلماء و الأدباء لخلق حركة أدبية تمتح أغراضها ومعانيها من العلوم الإسلامية , وتُغذي شوق أهل المغرب لزيارة الرسول بما تجود به القرائح من رسائل و أزجال ومدائح !

وكان القاضي عياض رحمه الله من أبرع من ألفوا في هذا الفن , وتشهد رسائله المبثوثة في كتب الأدب و الفقه و التاريخ على علو كعبه , خصوصا لما كان يتمتع به من متانة في الأسلوب , وفرادة في الصياغة اللغوية تمزج بين اللفظ الجزل , والاحتفاء بالسجع و الجناس وغيرها من ألوان البديع دون إفراط أو تصنع , وهو ما أكسب رسائله وخطبه مقومات جمالية أثرت بشكل واضح في الكتابة النثرية من بعده .

أما البناء الفني لهذه الرسائل فيمتاز بتفرده مقارنة مع النماذج الشائعة في الأدب العربي . إذ يفتتح الرسالة بديباجة تقوم مقام العنوان في المظروف البريدي , ويستهلها بتقديم اسم الرسول صلى الله عليه وسلم تأدبا وتوقيرا. فيقول " إلى سيد ولد آدم وشفيع العالم ,البشير النذير,السراج المنير,الرسول الكريم , الرؤوف الرحيم ,ذي الخلق العظيم,والفضل الباهر الجسيم,ودعوة أبيه إبراهيم ,وبشرى المسيح , وابن الذبيح ابن الذبيح ,المنبأ –وآدم بين الجسد والروح – الصادق الأمين,الحق المبين ..." ثم يُنهي الاستهلال بتعريف نفسه قائلا " من الشائق إلى زيارته,الراجي في

دعوته المدخرة في شفاعته ,المؤمن بنبوءته ورسالته , المعترف بتقصيره في طاعة الله وطاعته , عياض بن موسى" .

و يلي الديباجة تصدير يتضمن الصلاة على المصطفى , وذكر خلاله الحميدة و أوصافه المجيدة . وهنا يجتهد المؤلف في إيراد أوصاف غير مسبوقة , و تدبيج ما يضطرم به فؤاده من شوق في عبارات جيدة السبك , بعيدة عن التكلف و التأنق .ثم يشرع في وصف الغرض من الرسالة فيذكر تشوقه إلى زيارة الرسول ,و التماس شفاعته و التوسل إليه , و الشكوى مما يُصيبه . ولعل ما أضفى على رسائل عياض ميزة خاصة هي المحن التي نغصت عليه شيبته لما أبداه من تأييد لثورة أهل سبتة على الموحدين , ودفاعه عن عقيدة أهل السنة أمام دعوى عصمة الأئمة التي روج لها ابن تومرت ومؤيدوه .فكان حظه النفي و التضييق حتى وافته المنية بمراكش عام 544هـ.

يقول عياض في إحدى رسائله إلى الحضرة النبوية "... فيا محمداه طال شوقي إلى لقائك , ويا أحمداه ما كان أسعدني لو متع المسلمون ببقائك , ويا نبياه عليك مني أفضل الصلوات والبركات و التسليم , وياحبيباه اذكرني عند ربك في مقامك المحمود الكريم , وياشفيعاه اشفع لي ولوالدي في ذلك الموقف العظيم , اللهم إني أسألك بحقه عليك الذي آتيته , وبقسمك بعمره الذي شرفته به وفضلته ,وبمكانه منك الذي اختصصته واصطفيته أن تجازيه عنا بأفضل ما جازيت به نبيا عن أمته ,وتوتيه منا الفضيلة و

الوسيلة والدرجة الرفيعة فوق أمنيته ....." أما الخاتمة فيُنهيها عياض بتحياته وصلاته وسلامه على الرسول الكريم , وآل بيته الأطهار و صحبه الغر الكرام [2].

ولعل من أبدع ما خط قلمه في وصف الرسول الكريم قطعة "الشجرة " التي شاع ذكرها بين دارسي مؤلفاته ,وذلك في قوله "بعثه الله رحمة للعالمين ,وذمة للمسلمين ,وعصمة للتائبين النادمين , ونقمة للظالمين ,واستخرجه الله من شجرة مباركة طيبة , باسقة عطرة ناعمة,نبت من الخليل عودها واتسق باسماعيل عمودها,واتصل بعدنان عنقودها,وتم بمحمد صلى الله عليه وسلم صعودها . يالها من شجرة نبتت في أرض الصفا,وقامت على ساق الوفا ,وسقيت بماء الاكتفا ,لامعة البهاء ,مشرقة الضياء ,أصلها ثابت وفرعها في السماء , الحق زهرتها ,والصدق ثمرتها ,والحلم ورقها ,و العلم جثتها , و الهدى قنوانها , و التقوى أفنانها , من تعلق بها سلم ,ومن لجأ إليها (...) ومن استظل بها غنم,ومن عاندها حطم ,ومن خاصمها قصم ..." [3]

ولم يكن فن الرسائل النبوية هو الوحيد الذي يعكس النشأة الإسلامية للأدب المغربي,بل ظهرت إلى جانبه فنون أخرى كفن التصلية "أي الصلاة على النبي الأكرم,والمولديات و المدائح التي شُغف المغاربة بترديدها في الأفراح والأتراح ومجالس الذكر .

إن ما أبداه القاضي عياض في رسائله من عاطفة جياشة,وما بثه من تباريح الشوق لزيارة الروضة الشريفة لم يكن فقط وليد مشاعر ذاتية ,بل كان أبلغ تصويرلما يجيش في صدور أهل قُطر نأت بهم الديار,وثمرة أرواح هائمة بحب المصطفى.يقول في(الشفا)"إذا كان الإنسان يُحب من منحه في دنياه مرة أو مرتين معروفا أو استنقذه من هلكة أو مضرة مدةُ التأذي بها قليل منقطع ,فمن منحه ما لا يبيد من النعم ووقاه ما لايفنى من عذاب الجحيم أولى بالحب.وإذا كان يُحَب بالطبع ملك لحسن سيرته أو حاكم لما يُؤثر من قوام طريقته أو قاص بعيد الدار لما يُشاد من علمه أو كرم شيمته ,فمن جمع هذه الخصال على غاية مراتب الكمال أحق بالحب و أولى بالميل ." (4)

المصادر

(1) :الأستاذ فريد الأنصاري في تقديمه لكتاب "في محبة المصطفى صلى الله عليه وسلم".منشورات الزمن .العدد50.البيضاء 2006.ص 13

(2): - عبد السلام شقور.القاضي عياض الأديب .دار الفكر المغربي ط1. 1983 .ص 160 وما بعدها

- شهاب الدين أحمد المقري .أزهار الرياض في أخبار عياض ج4 . لجنة التاليف و الترجمة والنشر .القاهرة 1358هـ . ص11-20 .

(3) : عبد السلام شقور .مرجع سابق . ص 358

(4) : القاضي عياض اليحصبي . الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى .دار الرشاد الحديثة .الدار البيضاء 2010 . ص 245

رجوع للفهرس

أشواق المرأة المسلمة

هل قُدر للمرأة المسلمة أن تقضي حياتها متأرجحة بين سجان باسم الدين , و نخاس باسم الحرية ؟ أم آن الأوان لفض هذا الاشتباك , وتحريرها من سوء الفهم و خبث التوظيف لكلا التصورين ؟ إن ما نتابعه اليوم من سجال إعلامي و معارك حقوقية و سياسية لإنصاف المرأة , و الحد من صولة الخطاب "الذكوري" وهيمنته على كل مناحي الحياة, يوشك أن يُقنعنا بأن المرأة باتت قاب قوسين أو أدنى من النصر , وردم آخر معاقل التخلف و الجمود الفكري !

بيد أن ما ينضح به الواقع اليومي من مشاهد الاحتفاء الزائد بالجسد , ومخلفات الغارة الجنسية التي يدعمها خطاب العولمة بشكل غير مسبوق , يدفعنا للارتياب في صدق الانحياز لمطالبها, وتضميد جراح التاريخ !

اتسم الموقف من المرأة عبر التاريخ بطغيان العادات و التقاليد على المباديء الدينية السمحة التي سعت لتحريرها و إنصافها . بل إن النزعة الذكورية المفرطة في اعتدادها بنفسها بالغت في إكساب هذه العادات صفة القداسة , و تلمس أسانيد واهية لطمس معالم التكريم الإلهي للمرأة ووضعها على قدم المساواة مع الرجل في تحقيق معاني العبودية. ففي التراثين اليهودي و المسيحي , حرص الأحبار و آباء الكنيسة على الانحياز لمقولات أرسطو و أفلاطون المغالية في عدائها للمرأة, لحجب وصايا موسى وتعاليم المسيح عليهما السلام ! . فالقديس بولس الذي يعتبره النصارى " رسول الأمم" يؤمن بأن الوضع المتدني للمرأة ينسجم تماما مع النظام العام للكون

على اعتبار أنها أَصل الخطيئة , ومصدر الغواية التي انحرفت بآدم و أخرجته من الجنة [1] . أما القديس توما الأكويني الذي يُعد أكثر الفلاسفة تأثيرا في الفكر المسيحي حتى أنه لُقب ب "المعلم الملائكي" فلا يُخفي قناعته بدونية المرأة , وضرورة وضعها خارج النشاط العقلي للإنسان مادام التبرير الوحيد لخلقها هو الحاجة لاستمرار النوع البشري " إن المرأة خاضعة للرجل لضعف طبيعتها الجسمية و العقلية معا. و الرجل مبدأ المرأة و منتهاها , كما أن الله مبدأ كل شيء ومنتهاه . و قد فُرض الخضوع على المرأة عملا بقانون الطبيعة,أما العبد فليس كذلك.و يجب على الأبناء أن يُحبوا آباءهم أكثر مما يحبون أمهاتهم " [2]

ومع سطوع شمس الإسلام , تهيأ للمرأة مجددا عصر ذهبي استعادت خلاله زمام أمورها , و احتفت بإنسانيتها التي صانها الوحي الإلهي و التوجيه النبوي , من خلال إطار تشريعي يؤكد على المساواة في القيمة الإنسانية و الحقوق الاجتماعية و تحمل المسؤولية . لكن ما لبثت النزعة الأبوية أن استعادت سطوتها لتحل التقاليد مرة أخرى محل الموقف الديني السمح . وقد لاحت أولى البوادر في مجالس الصحابة و التابعين , حيث روى مسلم عن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول : " لا تمنعوا نساءكم المساجد إذا استأذنكم إليها " فقال له بلال ابنه : والله لنمنعهن , فأقبل عليه عبد الله بن عمر فسبه سبا سيئا ما سمعته سبه بمثله قط ! قال : أخبرك عن رسول الله وتقول : والله لنمنعهن !! غير أن الصورة

لم تبلغ حد القتامة إلا في عصور الاضمحلال السياسي و الاجتماعي التي تلت سقوط بغداد عام 1258 م . وكان على المرأة أن تخضع قرونا طويلة للاستعباد بفعل التدين الفاسد المخالف للفطرة , وبقايا الجاهلية الكريهة . ولم تتمكن من استعادة كيانها وحضورها الفاعل في المشهدين الاجتماعي و الثقافي إلا مع عصر النهضة , حين انبرى ثلة من العلماء و المفكرين لردم التصورات الدونية تجاهها , و عرض البراهين الدينية و العقلية التي تدعم مشروعية حقوقها .

إن ما صبونا إليه من خلال هذه العجالة التاريخية هو التأكيد على أن المواجهة في الحقيقة انتصبت بين الدين كإطار مرجعي يُلبي أشواق المرأة للحرية و الكرامة و النهوض , إلى جانب الرجل , بمهمة الإعمار و الاستخلاف , وبين الاستعلاء الذكوري الذي حرص على إبقائها حبيسة إطار بيولوجي يبدأ بالبلوغ و ينتهي بسن اليأس ! و بالتالي فإن رفع سقف المطالب بما يُتيح لها استرداد كافة حقوقها هو أمر مشروع , و لا غبار عليه , لكن ما يطرح أكثر من علامة استفهام هو هذا السعي المحموم لتدمير المرجعيات ومنظومة القيم , و شنق الفضيلة بحبال الأنانية و الصلف و المادية الموغلة في تطرفها . فحركة الحقوق الجديدة التي اصطُلح على تسميتها ب : النسوية أو "الأنثوية" تبدو اليوم كفرس حرون في إصرارها على تجاوز المفاهيم الإنسانية المشتركة لتحقيق التمركز التام حول الأنثى . تصف الدكتورة هبة رؤوف عزت خطورة هذا المسلك التحرري بالتأكيد على

أنه" بدأت عملية تفكيك لمقولة المرأة كما تم تعريفها عبر التاريخ الإنساني و في إطار المرجعية الإنسانية , لتحل محلها مقولة جديدة تماما تسمى (المرأة) أيضا , ولكنها مختلفة في جوهرها عن سابقتها . ومن ثم تتحول حركة التمركز حول الأنثى من حركة تدور حول فكرة الحقوق الاجتماعية و الإنسانية للمرأة إلى حركة تدور حول فكرة الهوية والذات و الجسد .. فلا حب و لاتراحم ولا إنسانية مشتركة , بل صراع شرس لا يختلف إلا من ناحية التفاصيل عن صراع الطبقات عند ماركس , أوالصراع بين الأجناس عند دراوين ..وتصل هذه الرؤية قمتها , أو هُوتها , حين تقرر الأنثى أن تدير ظهرها للآخر "الذكر" تماما , فهي مرجعية ذاتها وموضع الحلول ولا تشير إلا إلى ذاتها , فهي سوبرمان , ولهذا تعلن استقلالها الكامل عنه , وحينئذ يصبح السحاق هو التعبير النهائي للتمركز اللاإنساني حول الذات الأنثوية , و إلى نهاية التاريخ المتمركزة حول الأنثى " (3)

لا يُمكن لهذه النزعة التحررية الجامحة أن تعين المرأة المسلمة اليوم على استعادة كيانها الإنساني بقدر ما تزج بها في دورة استرقاق جديدة . و في المقابل تتميز الرؤية الإسلامية بإنصافها للمرأة دون الحاجة إلى افتعال مشاكل في المجتمع . ذلك أن اعتماد التوحد و التكامل أساسا للعلاقة بين الجنسين يحسم منذ البداية أي صراع قد ينشب حول الأدواروالمهام , سواء على الصعيد الأسري أو الاجتماعي .

إن غاية ما تطمح إليه المرأة المسلمة هو تلبية أشواقها للحرية التي ترفع عنها قيود الحجر الذكوري دون أن تجنح بها بعيدا عن النسق القيمي و الأخلاقي .

و ثانيا للكرامة التي تُشعرها بآدميتها , و تحملها , كما الرجل , لمسؤولياتها العقيدية و الاجتماعية و الحضارية .

و ثالثا للعدل الذي يصون حقوقها , و يحفظ مكانتها الاجتماعية .

و أخيرا للتقدير الإنساني الذي لا يمكن أن يتحقق بسن القوانين و إحداث المراكز و المؤسسات , بل بتربية الفرد مجددا على طرح استعلائه جانبا , و تمثل الرابطة الإيمانية التي تقوم على المساواة في القيمة و الحقوق و الواجبات , و على الأخوة التي أعلنها رسول الهدى عليه الصلاة و السلام منذ خمسة عشر قرنا : " النساء شقائق الرجال " .

المصادر

(1) د. إمام عبد الفتاح إمام : الفيلسوف المسيحي و المرأة . مكتبة مدبولي 1996. ص 52

(2) المرجع السابق . ص 144

(3) د. هبة رؤوف عزت : المرأة و الدين والأخلاق . سلسلة حوارات لقرن جديد . دار الفكر .دمشق 2000. ص 157

رجوع للفهرس

البــذاءة

أن يكون الشارع مشتلا خصبا للبذاءة فهو أمر مفهوم ووارد خصوصا في الفترات التاريخية التي تشهد التفافا متعمدا على منظومة القيم السائدة , أو تشبعا بالقيم الوافدة ! لكن أن يجري التطبيع مع البذاءة, و تسويغها و اعتمادها ضمن قاموس التخاطب الإعلامي و الفني فتلك , لعمري , قاصمة الظهر التي تودي بما تبقى للكائن الإنساني من خيرية وسمو .

ما من مجتمع إلا وله قوانينه ذات المرمى الأخلاقي , والتي تهدف إلى حماية أفراده من الأذى و فرض النظام ليعم السلام . بيد أن هذه القوانين إنما تسعى في الغالب إلى صيانة الحد الأدنى من القيم , والذي بدونه يصبح المجتمع عرضة للتفسخ و الانحلال . بينما يُترك لقوالب التهذيب الأخلاقي السائدة داخله مهمة تحقيق التنشئة الاجتماعية السليمة, وإلزام الفرد بالولاء لبناء قيمي يسمو بكيانه ويرقى بفكره وسلوكه. هذا لا ينفي طبعا استمرار تأرجح النفوس بين الانحراف و الاستواء غير أنه لا يؤثر على دورة الحياة إلا حين ينفلت من حيز" الخاص" إلى المجال العام .

تندرج البذاءة ضمن عوامل التدنيس التي تنال من البناء القيمي , وتُسهم في تحطيم الأطر الأخلاقية الحاكمة للفرد والمجتمع .وقد عرفها الغزالي في "الإحياء" بقوله ((وأما حده –البذاء – وحقيقته فهو التعبيرعن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة, وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به .فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيه و أهل الصلاح يتحاشون عنها بل يُكنون عنها, ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها

و يتعلق بها)) أما الباعث عليه فهو إما قصد الإيذاء أو الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب [1].

البذاءة إذن برأي الغزالي مشكلة هامش لا يؤثر في القيم المركزية , مادام تداولها قصرا على "أهل الخبث و اللؤم " والاعتياد عليها وليد "المخالطة".وهو هنا ينطلق من تصور مفاده أن القوامة الدينية على الأخلاق في المجتمع الإسلامي , و الرقابة الذاتية التي أرستها تعاليمه في نفوس أتباعه كفيلتان بحصر الانفلات في حيز الهامش . بيد أن للمؤرخ رأيه بشأن سطوة البذاءة على المجال العام في فترات تاريخية معينة ,إذ يحيلنا آدم ميتز في كتابه "الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري " على وضع أخلاقي تحررت فيه البذاءة من الهامشية لتطفو إلى سطح التداول المعلن: " إننا لو قارنا قصص العرب في عصرهم الأول و نوادرهم وكلامهم و شعرهم بما في القرنين الثالث و الرابع للهجرة لأدهشنا ما نجده في هذين القرنين من ميل شديد إلى الإفحاش في القول . وليس هذا إلا من أثر سيطرة العادات الشرقية غير العربية التي كانت قبل الإسلام , سيطرة عادت لها من جديد ؛ ولا يزال البدوي إلى اليوم أعف و أطهر من غيره. وقد سيطرت على شعر الهجاء بنوع خاص الألفاظ البذيئة المستمدة من المجون المتصل بالمسائل الجنسية" [2] وهو يلقي باللائمة على طبقة الشعراء الشعبيين أمثال ابن الحجاج , و الذين أتاحوا للفحش أن يرفع رأسه في الشرق بعد أن كانت قد أخمدته الروح العربية و أخرجته من الأدب العربي. و إذا

استحضرنا وظيفة الشعر آنذاك , والتي تضاهي تأثير المنابر الإعلامية اليوم لتبين لنا حجم الانفلات ومبلغ الفحش الذي آلت إليه لغة التداول اليومي !

يُراد اليوم للبذاءة أن تستعيد ظهورها مجددا في الفضاء العام , وأن تُخترق الطابوهات التي تلقي بمفرداتها و تعابيرها في الهامش , و أن يتحرر الخطاب اليومي من نفاق التهذيب الأخلاقي الذي يحجب عن الأذهان حقيقة مفادها أن الإنسان هو أولا وقبل كل شيء : حيوان !

و يُراد اليوم للبذاءة أن تحتل الواجهة اللغوية لمجتمع يصبو للانفتاح و الحداثة و التحررمن سلطة المقدس , مادامت اللغة المهذبة , بزعمهم , رديفة المجتمع المنغلق و الحامل لموقف عدائي تجاه كل ما هو وافد .ومادام الإنسان مقياس كل شيء فله الحق في إعادة صياغة وجوده وفق معايير تنهل من غرائزه السفلى , حتى لو نتج عن أنانيته هذه تفكيك روابط المجتمع .

الحقيقة أن ما يغذي التطبيع مع البذاءة إنما هي مقاربة مبتورة لأسباب التقدم العلمي و الصناعي في الغرب , ووهم صارخ بأن بلوغ القوة المادية و تثبيت الحقوق و الحريات الفردية يستلزم بالضرورة إحداث تحولات أليمة في البناء القيمي . يقول الأستاذ محمد قطب " إنهم يظنون أن العظمة العلمية تستتبع حتما أن يكون الإنسان كله قد ارتقى .فلا بد إذن أن تكون الأخلاق و العادات و التقاليد الموجودة في عصر الذرة أفضل من مثيلاتها في العصور السابقة , التي لم يكن العلم فيها قد وصل إلى هذه الأسرار !

ومادام الناس فيها لا يؤمنون بإله , و لا يتبعون قواعد الأخلاق , و يستبيحون الفوضى الجنسية , وينكرون القيم العليا و يعتبرونها خرافة , فلا بد إذن أن يكون هذا كله هو الحق , لأن هذا هوعصر العلم و النور و الحقيقة ! " (3)

ينضاف إذن تسويغ البذاءة إلى قائمة الانحرافات التي تتطلب معالجة رصينة, و انكبابا جادا يتخطى حدود المواعظ الباردة .

المصادر

(1) أبوحامد الغزالي : إحياء علوم الدين .ج3. سماراغ أندونيسيا .دت. ص118

(2) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري.دار الكتاب العربي.بيروت 1947. ص 181

(3) محمد قطب : الإنسان بين المادية و الإسلام. دار الشروق. القاهرة 1989 . ص 218

رجوع للفهرس

الحياء ..لبنة حضارية

لا ريب أن النقلة الأخلاقية عنصر حيوي لاستكمال البناء الحضاري , وأساس كل مشروع يهدف إلى تحقيق النهضة , أو على الأقل توفير شروطها .لذا تستمد منظومة القيم لكل أمة أو جماعة أهميتها ومشروعيتها من كونها حارسة للهوية , و صائنة للانتماء , وإطارا مرجعيا للمبادرة الفردية والجماعية .

من هذا المنطلق يكتسب الدفاع عن الأخلاق الإسلامية وجاهته وضرورته في عالم يُصر على استنبات قيم جديدة تلغي الفروق العقدية و الفكرية , وتهمل الخصوصيات الحضارية للأمم .فتحت مسمى "الإنسانية " و "الكونية" يجري الالتفاف بخبث ودهاء على المنبع الذي تنهل منه الأخلاق الإسلامية سماتها وتفردها , كما يتم , في الآن ذاته, التحريض على الفكاك منها بدعوى انغلاقها وعجزها عن التلاؤم مع شروط الانتساب للعالم المتقدم !

وإذ نثمن الجهود التي تُبذل في الوقت الحاضر لاستعادة الشخصية الإسلامية , وحفز المسلم المعاصر على التمسك بقيمه , وتوجيه سلوكه ومعاملاته بما يضمن تحقيق مراد الله تعالى من بعثة الرسل و إنزال الكتب , لا يسعنا في المقابل إلا التنبيه على ضرورة التقدم خطوة إلى الأمام ,وكشف التلازم بين التخلق بأخلاق الإسلام وتشكيل نسق حضاري قائم على العطاء و الإبداع و التحرر من الخرافة و الوهم .

إن للأخلاق الإسلامية أثرها على الفرد و المجتمع , وهذا أمر بَين لا يحتاج منا إلى تدليل , لكن ما يُعوز المسلم في الوقت الراهن هو استجلاء فعاليتها في ردم صور التبعية و التخلف , و الانجذاب المفرط صوب قيم الغرب وتمثلاته .فالحديث مثلاعن خلق الإيثار و الحياء في عالم مُشبع بمظاهر الأنانية المفرطة و التحرر من العفة , لن يُحقق مبتغاه بركونه إلى تحريك الوجدان ,و الحنين إلى مجتمع السلف الصالح الذي أفلح في تطبيقها و تمثلها. وهذا ما يضعنا أمام تحد كبير قوامه : تأكيد الفعالية الحضارية للأخلاق الإسلامية.

جاء في الحديث النبوي الشريف أن "الإيمان بضع وستون شعبة و الحياء شعبة من الإيمان " [1] وتخصيص الحياء هنا بالذكر دون غيره من الشعب تأكيد على عظم شأنه وعلو قدره , فهو السجية التي بها قوام الدين وعليها مداره .لذا نلمح في ورود الأحاديث بشأنه حرصا نبويا على التحذير من مغبة التفريط فيه , لأنه الحائل دون الانسلاخ من الدين بالكلية, كقوله صلى الله عليه وسلم " إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت" [2] .

و الحياء كما يُعرفه الإمام النووي رحمه الله " انقباض وخشية يجدها الإنسان من نفسه عندما يُطلع منه على قبيح " [3] . بيد أن هذا التعريف يقصر في الحقيقة عن بلوغ المراد من الحياء كما ألمحت إليه جملة من الأحاديث الشريفة , فحصول الانقباض هنا برأي الإمام مرتبط بانكشاف

المعصية للآخرين , وبالتالي فهو أقرب للحرج بتعبيرنا المعاصر , بينما خلق الحياء ينطوي على بُعد وقائي يصون النفس من الوقوع في الإثم , أو حتى التفكير فيه !

أما الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي فيرى أن الحياء خُلق " يتولد من مطالعة نعم الله و رؤية التقصير في شكرها " [4]. و يميز بين نوعين من الحياء : فطري يُنعم الله تعالى به على من يشاء من عباده , وآخر يكتسبه المرء من معرفته بعظمة الله وقربه و اطلاعه على خلقه ,وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور . وحديث الإمام هنا عن الحالة الناشئة من مطالعة النعم ورؤية التقصير يُكسب الحياء دلالة أعمق تتخطى حدود الذات صوب تحقيق الفاعلية الحضارية المنشودة , فلا تكون الغاية فقط تزكية النفس بل تمتد إلى تحريك الهمم للنهوض بواجب الاستخلاف . فمن تفكر في الموجودات , وشاهد عناصر التكريم الرباني , ثم استعرض حاله في الإقبال و الإدبار تولد في نفسه الحياء من الله , وأدرك عظم تقصيره في تحقيق مراد الله .

فالعالِم المسلم يستحي من الله أن تشيع الخرافة و الجهل و ألوان البدع في بلاد المسلمين ثم لا يبذل وسعه للتصدي لها وكشف زيغها و انحرافها عن المنهج الرباني .

و الطبيب المسلم يستحي من الله أن يُرى فاتر الهمة في تخفيف ألم أو إجراء فحوص لمرضى يفترشون ردهة المستوصف , بينما الآلاف من أطباء الملل

الأخرى يجوبون القرى المنكوبة و الأدغال الموحشة باسم الإنسانية أو باسم المسيح!

و المُزارع المسلم يستحي من الله أن يُطعم الأمة ما التاث من نبات الأرض بالسموم و المبيدات الضارة , فلاتشغله مكاسب الربح عن طلب الحلال و إعفاف النفس واستحضار مراقبة الله تعالى .

و الأمة الموصوفة بالخيرية و الشهود الحضاري تستحي أن تُرى عالة على الأمم الأخرى في مطعمها وملبسها وسائر ضرورات حياتها . فتستحث همم أبنائها , وقواهم المعنوية و المادية ليتصرفوا في الكون وفق منهج رباني ضمن لسلفهم الريادة والتمكين.

أما تمييز الإمام بين الحياء الفطري و المكتسب فيُحيل ضمنا على ما يتطلبه ترسيخ الحياء في سلوك الفرد من جهد تربوي يقع على عاتق الأسرة باعتبارها المحضن الأول . غير أنه جهد لا ينبغي أن يقف عند صيغ الاحتشام التي تحمل الأسرة صغارها على مراعاتها امتثالا لأمر إلهي , أو لما جرى عليه العرف و العادة .بل يجب أن يمتد إلى منظومة الأفكار و التصورات التي تحكم علاقته بخالقه أولا , وبالخلق ثانيا , وبالكون ثالثا .

فحياؤه من خالقه , وهو أعلى خصال الإيمان , يحثه على التعاطي بإيجابية مع مبدأ التسخير الذي جعل كل عناصر الكون خادمة له , فيُبادر للعطاء و البناء و الإبداع . كما يُجنبه الانصياع لدواعي الفساد التي حذره الحق

سبحانه من عواقبها , وضرب له من الأمثال ,و ساق له من الأخبار ما فيه غُنية وكفاية .

وحياؤه من الخلق يحمله على التمسك بالمثل و القيم الأخلاقية التي تكمن فيها قوة المجتمع الإسلامي , كما يُلزمه بالسعي إلى توثيق عرى الأخوة الإيمانية , ونبذ صور التناحر و العداوة و البغضاء التي تفت عضد الأمة ,وتعرضها للهزات و الاضطرابات.

أما حياؤه من الكون فلأنه الكتاب المنظور الذي يحوي بديع صنع الله ودلائل عظمته , فيُدرك أن مسؤوليته تجاهه تفرض تسخيرعناصره لما يحقق له المنفعة دون مجاوزة حد الاعتدال و التوسط .وبذلك يتجنب مغبة الانزلاق خلف تصور غربي عدائي يزعم مركزية الوجود الإنساني , وحقه المطلق في استنزاف محيطه الحيوي وتدجينه .

إن أهم خصائص الحضارة الإسلامية أنها حضارة إيمانية متجددة, يُشكل الدين أقوى دوافع قيامها وازدهارها (5) لذا فإن شعب الإيمان التي تفوق الستين شعبة بنص الحديث الشريف تشكل لبنات التجديد الحضاري , وركائز مهمة لتقوية كيان الأمة وتجديد عطائها واستئناف مهمتها في نشر قيم الإسلام وتعاليمه السمحة. ومحاولتنا لتأكيد الفعالية الحضارية لخلق الحياء هي في الواقع دعوة لإرساء منظور جديد للأخلاق الإسلامية لا

يحصر غايتها في تزكية النفس , والحؤول دون انقيادها لدواعي الانحلال و التردي , بل يطمح في جعلها قاعدة صلبة لتجديد أساليب الحياة العامة في شتى المرافق و المجالات , واعتمادها منطلقا للإرادة الحرة التي تروم تقويم الأوضاع , وترشيد الجهود , والاستجابة الكفؤة لمطلب التحدي الحضاري .

المصادر

---

(1) : رواه البخاري و مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه

(2) : رواه البخاري من حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه

(3) : الإمام محيي الدين بن شرف النووي : بستان العارفين . دار البشائر الإسلامية . ط 6 - 1427هـ . ص 129

(4) : الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي : جامع العلوم و الحكم . دار البيان الحديثة . ط1 - 1422 هـ . ص 248

(5) : د.عبدالعزيز بن عثمان التويجري : خصائص الحضارة الإسلامية وآفاق المستقبل .منشورات إيسيسكو . 1423 هـ

رجوع للفهرس

القارونية

في بضع آيات من سورة القصص , يعرض النص القرآني لإحدى أبلغ الصور الدالة على مآل السقوط الإنساني في غواية المادة, و الولاء لزينة الحياة الدنيا . وإذا كانت القارونية في هذه الآيات تتجسد في حالة فردية , فإنها اليوم في المجتمع الإسلامي المعاصر سلوك جماعي , وبوصلة توجه مواقف النخبة الحاكمة في بلدان بأسرها !

من يتتبع مواطن التحذير من المال في السياق القرآني يُدرك حتما مغبة الانقياد لسطوته , وما ينشأ عن الإفراط في محبته من خلل في السمات و المعايير . ذلك أن المال وجدان حي له من القدرة ما يجعل البعض منا محبوسا خارج ذاته , أما المبالغة في جمعه و اكتنازه فتُحدث تغييرا خطيرا في السمات الشخصية و اضطرابا نفسيا يؤدي إلى الإصابة بعاهات خلقية كالرشوة و هوس الثراء و البخل و الرياء . وفي كتاب (سيكولوجية المال) للدكتور أكرم زيدان عرض واف لهذه الاختلالات وتأكيد على أن النقص الذي قامت على أساسه الحضارة البشرية يدفع البعض وبقوة إلى امتلاك أدوات السيطرة و التفوق ,و من بينها المال , وهو ما ينعكس سلبا على التوازن النفسي للإنسان !

بالعودة إلى النص القرآني نجد أن أول سمة من سمات القارونية هي الولع المَرضي بالمال , و الرغبة المتفلتة من كل قيد لجمعه و اكتنازه . وهنا يُصبح المال علة لذاته لا مجرد وسيلة للاستمتاع . و إذا كانت النفس الإنسانية , بحسب النص القرآني دائما , مجبولة على حب المال و ادخاره,

فإن الحض الإلهي على البذل والإنفاق الواجب و المستحب , و توسيع دائرة المنتفعين بعطائه سبحانه , يحمل النفوس على اجتياز امتحان صعب تتبارى فيه لتقيس مدى انجذابها لبريق المال و سطوته .

تعرض الآيات المذكورة لحوار بين قارون بني إسرائيل و بعض العقلاء من قومه .وبينما يحثه هؤلاء على مراعاة التوازن بين نعيمي الدنيا و الآخرة, ومقابلة العطاء بشكرالإحسان للغير , يعتد قارون بجهده الذاتي كمصدر لثرائه , ويطرح فهما للعطاء مبتور الصلة بالله : (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة و لا تنس نصيبك من الدنيا و أحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين قال إنما أوتيته على علم عندي)القصص:الآيات 76 -78. هذا الفهم الذي يرى نعمة المال نظيرا للجهد دون تدخل قوة عليا تهب و تعطي , يُسهم بشكل كبير في نضوب الإيمان و انحسار الوازع الديني .

و حين تتآكل الفاعلية الإيمانية التي توجه الفكر والسلوك , تبرز السمة الثانية من سمات القارونية : سمة البغي (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم)القصص: الآية 76

ومرد هذه السمة إلى أن وفرة المال تمنح صاحبه قوة ورغبة في التسلط و فرض الرأي . ويزداد الأمر سوءا حين يحشد حوله زمرة المتملقين الذي يُقرون له بمواهب و قدرات تغذي زهوه و اعتداده بنفسه !

يروي ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) أن موسى عليه السلام لما نزل عليه الأمر بالزكاة أوجب على قارون ان يُخرج زكاة ماله بمقدار واحد من الألف , فمن كل ألف دينار دينارا , ومن كل ألف شاة شاة واحدة وهكذا . فلما أحصى قارون ما بحوزته وجد أن مقدار الزكاة كبير فامتنع عن إخراجه . ولم يقف به الأمر عند هذا الحد , بل دبر مكيدة لموسى عليه السلام حين دفع مالا لبغي كي تتهمه بأنه فجر بها . غير أن البغي برأت موسى , فأوحى الله تعالى إليه : مُرالأرض بما شئت تطعك, قال: يا أرض خذيهم !

إن الثراء الفاحش عادة ما ينفث في روع صاحبه بأن له من السلطان ما يمنحه حق إصدار الأحكام , و تكييف القيم و العادات و المعايير الاجتماعية بما يُناسب وضعه الاستثنائي . فالناس عنده تُحدد مكانتهم بمقدار ما يكسبون و ما يدخرون , أما خطاب المُثل و القيم الإنسانية و العلاقات المبنية على المودة و التعاون و الإيثار فلا تعدو , برأيه , أن يكون تبريرا للعجز , أو تحايلا للاستحواذ على ما في حوزة الأثرياء . من هنا تتولد السمة الثالثة من سمات القارونية , ألا وهي سمة الاستعلاء و الاعتداد بالثروة و الجاه .

يُحيلنا النص القرآني في مواضع عديدة على الممانعة التي أبداها الأثرياء إزاء دعوات الرسل , و حرصهم على تشكيل طبقة عازلة تحول دون بلوغ دعوة الحق .

قال تعالى (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون وقالوا نحن أكثر أموالا و أولادا وما نحن بمعذَبين) سبأ : الآيتان 34-35

إن سمة الاستعلاء تحملهم على تسفيه رأي النذير (و إلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين) الأعراف : الآيات 64 – 66 .

و تحملهم على تهديد المرسلين بالإيذاء والتهجير القسري (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب و الذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا) الأعراف : الآية 88.

و تحملهم على ثني المستضعفين عن تصديق دعوات الرسل (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة و أترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم ياكل مما تاكلون منه و يشرب مما تشربون و لئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم و كنتم ترابا و عظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) المؤمنون : الآيات 33-37

و بما أن المال في عرفهم هو مقياس الوجود الإنساني , و دليل الاصطفاء الرباني للخلق , فإنهم يشترطونه حجة على صدق دعوة الرسول (وقالوا ما

لهذا الرسول يأكل الطعام و يمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يُلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها)الفرقان : الآيتان 6-7

و غاب عن عقل القاروني أن المال ليس في كل أحواله نعمة , فقد يكون استدراجا يُمحص الله به قلوب العباد , أو بلاء يُمهد الله به اجتثاث المعرضين عن الحق !

إننا حين نستعرض ما بلغته القارونية المعاصرة من تسلط و استخفاف بكل القيم الإنسانية , واعتداد غير مسبوق بالذات و المكانة , نستشعر حقيقة تواضع شأن ثري بني إسرائيل !

فالقارونية المعاصرة لا تتورع عن تمويل المذابح في حق المسلمين صيانة لأمن الكرسي و استقرار البلاط .

وهي لا تطمح لاسترقاق الجسد فحسب ,بل تسعى وبكل قوة لاستنزاف الإرادة , وإجهاض الوعي وطمس البصائر .

وهي لا يشغلها ولاء حاشية المتملقين أو الزمرة المنتفعة بالفتات , بقدر ما يشغلها ولاء العدو المتربص بها . فلا هم لها إلا استرضاؤه و جلب مودته حتى لو كلف الأمر ضخ دماء المستضعفين لتدوير عجلة اقتصاده !

وهي لا تدك أسوار الماضي فقط , بل تجتث الحاضر و تئد في الثرى بذور المستقبل .

وهي قارونية لا تخرج على القوم في زينتها بل في مدرعاتها و دباباتها وترسانة رعب تهلك الحرث و النسل لنزوة حكم أو شهوة إبادة .

إن مما يثير الحزن في المجتمع الإسلامي المعاصر أن تتعلق آمال العديد من شبابه بمطمح الثراء السريع , و الاغتناء ولو بوسائل و أساليب غير مشروعة. وبدل أن يجعلوا من قصة قارون عبرة لكل ضمير حي , و درسا يصون مقومات الوجود الإنساني من العبث , أبوا إلا أن يرفعوها أيقونة للحالمين !

رجوع للفهرس

شَرَك الرياء

حق على كل مسلم أن يتعهد قلبه كما يتعهد مطعمه وملبسه ومسكنه . فالعبودية لله ليست عبودية جوارح فحسب , بل عبودية قلب امتزج فيه الخضوع بالمحبة . إنها " سر يتعلق بالقلب و إخلاص ينبع من الروح , فإذا لم يصدق قلب المسلم في عبادته . و لم يخلص لله في طاعته و أداها رسوما خالية من الروح كما ينطق الأبله بالألفاظ الخالية من المعنى , فهناك يردها الله عليه كما يرد الصيرفي الدراهم الزائفة " [1]

من هذا المنطلق يكتسب الحديث عن الرياء ضرورته في مجتمع إسلامي حائر بين الولاء التام لهويته الدينية ومنظومته الأخلاقية , وبين ما يحرض عليه المتغير الاجتماعي و السياسي في ظل العولمة من تملق و احتفاء بالمظاهر حتى على مستوى الشعائر التعبدية !

ورد في الحديث النبوي " إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر , فسُئل عنه فقال : الرياء " [2] وفي حديث آخر يصف النبي صلى الله عليه وسلم الرياء ب"الشرك الخفي" ثم يقرب للأذهان مدلوله بمثال:"يقوم الرجل فيصلي , فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل" [3]

تدل المبالغة في التحذير هنا على عظم الخطر , ذلك أن من ذاقت نفسه حلاوة التوحيد , وتجاوبت مع دين وصفه الحق سبحانه ب "فطرة الله التي فطر الناس عليها" فإنه ينفر من الشرك البين , أما الشرك الخفي فآفة تلازم الطاعات و العبادات لتجريدها من الإخلاص الحق , وحرمان صاحبها الأجر و الثواب . لذا فإن العاقل لا يطمئن لمجرد إتيان الطاعات على الوجه

المطلوب , بل ينفذ ببصيرته في عوارض الشرك الخفي , فيعلم ما ينبغي له توقيه و الحذر منه .

يُعرف الحارث المحاسبي الرياء بأنه " إرادة العبد العباد بطاعة ربه " [4] إلا أن هذه الإرادة برأيه على وجهين : وجه أشد و أعظم حين يصرف العبد طاعته لغير الله , ووجه أدنى و أيسر حين يجتمع في القلب رجاء ثواب الله , ومحمدة الناس .

أما منشأ الرياء و أصله فهو القلب الذي تتشعب منه ثلاثة عقود : حب المحمدة , و خوف المذمة و الضعة في الدنيا , و الطمع فيما في أيدي الناس "لأن العبد قد يعلم أنه لا ينال ما عند الناس بطاعة ربه إلا أن يحمدوه عليها , فتبذل له أموالهم , وإنما جزع من الذم لحبه للمحمدة كراهية أن يزول عنه حمدهم فتؤول هذه الخلال الثلاث إلى حب المحمدة "[5] ! .و لا يغفل المحاسبي في رصده لكيفية تغلغل الرياء في النفوس أن يكشف عوارضه ومنازله وما يجدر بالمسلم أن يستعين به لكسر دواعي الرياء , وصون أعماله من زلل الركون لمحمدة الخلق أو مذمتهم , وذلك بأسلوب شيق و تحليل رصين يؤكد ما ذهب إليه الإمام الغزالي من أن المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة , وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس و آفات الأعمال و أعوار العبادات !.

و ينسج أبو حامد الغزالي على غرار المحاسبي في بيان حقيقة الرياء , فيؤكد أن أصله " طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير " . ثم يحصر جملة الأعمال التي يُراد بها التزلف للناس في خمسة أقسام :

1- الرياء في الدين و البدن : بإظهار النحول و الصفار ليوهم بذلك شدة الاجتهاد , وعظم الحزن على أمر الدين , و غلبة خوف الآخرة .

2- الرياء بالهيئة و الزي : بتشعيث شعر الرأس و حلق الشارب و إطراق الرأس في المشي و الهدوء في الحركة .

3- الرياء بالقول : و يكون بالوعظ و التذكير و النطق بالحكمة و حفظ الأخبار و الآثار لأجل الاستعمال في المحاورة , وإظهار الغزارة في العلم و دلالة على شدة العناية بأحوال السلف الصالح , و تحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس , و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر بمشهد الخلق , و إظهار الغضب للمنكرات و الأسف على مقارفة الناس للمعاصي ..إلخ

4- الرياء بالعمل : كمراءاة المصلي بطول القيام و مد الظهر و طول السجود و الركوع و إطراق الرأس و ترك الالتفات و إظهار الهدوء و السكون ..و بالإخبات في المشي عند اللقاء كإرخاء الجفون و تنكيس الرأس و الوقارفي الكلام .

5- المراءاة بالأصحاب و الزائرين و المخالطين : كالذي يتكلف أن يستزير عالما من العلماء ليقال إن فلانا قد زار فلانا , أو عابدا من العباد ليقال إن

أهل الدين يتبركون بزيارته .. ومن المرائين من لا يقنع بقيام منزلته , بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء و الحمد , ومنهم من يريد انتشار الصيت في البلاد لتكثر الرحلة إليه , ومنهم من يريد الاشتهار عند الملوك لتقبل شفاعته . (6)

أما عند الماوردي فيتخذ الرياء صورة الزيادة في التكليف , إلا أنه تكليف لا يراد به سوى التصنع للمخلوقين حتى يستعطف به القلوب النافرة , و يخدع به العقول الواهية , فيتبهرج بالصلحاء و ليس منهم , و يتدلس في الأخيار وهو ضدهم .. فهو بريائه محروم الأجر مذموم الذكر , لأنه لم يقصد وجه الله تعالى فيؤجر عليه , ولا يخفى رياؤه على الناس فيُحمد به (7) .

وتكمن خطورة الرياء في انسياق المسلم خلف ما ينشأ عن ثناء الناس و محمدتهم من ارتياح وسرور .لذا حث علماء السلف الصالح على دفع خطراته , وتوقي لذاته الخفية التي تحبط العمل الصالح .أما كيف يرصد المرء انقياد نفسه لداعي الرياء فإن لهذه الآفة علامات جلية يستشعرها كلما شرع في فعل تعبدي, وأهمها:أن لا تقنع نفسه و لا يرتاح قلبه إلا باطلاع الناس على عمله,وأن يدع الطاعة خوفا من الذم حتى يصير رضى الناس عنده مقدما على رضى الله تعالى , وأن يكون أحب الناس لديه أبلغهم في الثناء عليه !

هل يمكننا الجزم أننا إزاء مشكلة أخلاقية ينبغي التصدي لها و التوعية بمخاطرها ؟

الحق أن التدني الأخلاقي الذي تدعمه آلة إعلامية رهيبة , و ينقاد له الأفراد طائعين مختارين هيأ النفوس لتقبل الآفات و تبريرها , بل و الدفاع عن ضرورتها لبلوغ الآمال و تحقيق الرغبات . وفي مناخ كهذا لا عجب أن يصبح الرياء عملة رائجة , ويفقد الإخلاص دلالته !

وإذا كنا نراهن على إعلام ديني يُمكن الفرد من استعادة توازنه الروحي , فإن كسب الرهان يفرض تجديد النظر في صيغ تقريب وعرض حقائق الإسلام بما يحفز المسلم المعاصر على تمثلها سلوكا ومعاملة . ولعل المدخل الصائب لتصحيح التدين هو: إصلاح السريرة ووصل الهمم بالسماء, حتى يكون العبد بمنجاة من شَرك الرياء !

المصادر

(1) د.يوسف القرضاوي : العبادة في الإسلام . مطبعة المدني القاهرة .ط 24 . 1416 هـ .ص 163

(2) رواه الإمام أحمد وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع رقم : 1555

(3) رواه ابن ماجة و صححه الألباني في صحيح الجامع رقم : 2607

(4) أبو عبد الله الحارث المحاسبي : الرعاية لحقوق الله . دار المعارف . القاهرة .ط 2 . 1990 . ص 134

(5) المرجع نفسه . ص 138

(6) أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين . مطبعة كرياطة فوترا . أندونيسيا . د ت . ص 291-290

(7) أبو الحسن الماوردي : أدب الدين و الدنيا . دار اقرأ . بيروت . ط 4 . 1985 . ص 118

رجوع للفهرس

عبد القطيفة

أنتجت الحداثة المعكوسة في مجتمعنا الإسلامي المعاصر تغييراً مشوهاً، وانزياحاً سالباً عن الثوابت و القيم والإطار المرجعي الذي يحكم فكر المسلم وسلوكه اليومي. فطفت إلى السطح وثنية جديدة تستحث الإنسان ليعبد منتوج يديه, وليُسلم قياد روحه وجسده لنشوة استهلاك بغيضة .

لقد أنعم الحق سبحانه على الإنسان بنعمة اللباس فقال " يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم و ريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون" الأعراف آية 26 , وجعل زينة الملبس مكملة للعبادة الحقة التي يُتقرب بها إليه في قوله عز وجل " يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا و اشربوا و لا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين " الأعراف 31 . بيد أن ما قرره النص القرآني بكونه وسيلة لغاية مثلى , أضحى اليوم تحت تأثير الموضة و بدائل الفراغ الروحي في الغرب مرمى وغاية لا يستشعر المرء قيمة لوجوده ووظيفته الإنسانية في الحياة إلا بتحقيقها. وامتدت نزعة الاستهلاك الحادة التي تغذيها الإعلانات و السينما إلى البناء القيمي ,فعمدت إلى تفكيكه وتذويب خصوصياته في نسق من الإشباع المتجدد .

تولد الهوس المعاصر بالملابس عن نزعة تحررية سادت فترة الستينات من القرن الماضي , حيث تضخم الاهتمام بالجسد على المستويين العاطفي و القيمي , وتشكلت منظومة من التصورات و الممارسات التي تعيد النظر في القواعد الاجتماعية المتحكمة في مظهر الأفراد . خلال هذه الفترة حرص

مصممو الأزياء و المجلات النسائية على فرض و تعميم ما يسميه جان ميزونوف ب "عبادة الرشاقة " و التعبير عن العودة إلى الطبيعة عبر تحرير الجسد و الابتهاج بالعري.وبما أن الملابس "التقليدية " عنوان على التصرف تحت مسؤولية الجماعة فإن الانسياق خلف الموضة شكل مدخلا حيويا يسمح بالاستقلال عن الوصاية الاجتماعية و التحررالذي يبلغ حد الاستفزاز !

لكن بغض النظر عن الرسائل التي يتم توجيهها و الوظيفة الرمزية التي يؤديها اللباس اليوم كوسيلة اتصال و إيحاء بوضع اجتماعي معين , فإن الإفراط في التأنق و الهوس بكل جديد في صيحات الموضة قد أفضى إلى حالة من التنميط و التفاهة , يقول ميزونوف ,فالملابس المبتكرة واللافتة للنظر تؤدي في الحقيقة دورا تعويضيا, إنها تعبرعن محاولات(تدعو للشفقة) لإخفاء كراهية للذات مثيرة للدهشة أكثر مما تعبر عن الابتهاج [1].هكذا إذن يُعلي الفرد من شأن قطيفته,ويصبح عبدا لكل منسوج حريري أو قطني يخفي هشاشته !

من منظور آخر يخفي ذيوع و انتشار اتجاهات الأزياء, برأي أجنر فوج, صراعا اجتماعيا بين الشرائح العليا والدنيا ." إن أبناء المجتمع المحرومين من الامتيازات ربما يسعون إلى إخفاء مكانتهم الدنيا ومن ثم يعمدون إلى محاكاة أسلوب الطبقة العليا مما يفضي إلى نوع من التضخم في الأساليب " [2].وليت الأمر يقف عند حدود التضخم , فالهوس بالانتساب

لوضع اجتماعي أرقى, وبث صورة مرغوبة عن الذات حتى وإن تأكد زيفها,أسفر اليوم عن اغتراب يقرنه إيريك فروم بالوثنية كما أوردها الفكر النبوي. إن إنسان العصر محكوم اليوم من طرف الأشياء التي صنعتها يداه,وصارت حكمته وقوته وباقي خصائصه الإنسانية رهينة أوثان مؤسسة على التبضع و الامتلاك و الرضاعة الأزلية [3] .

يغذي الافتتان باللباس وصيحات الموضة في الحضارة الغربية أوهام تحرر تستبلد العقل و الوجدان .فالرقابات الاجتماعية والاضطهاد المعقلن لمجتمع الوفرة يولدان لدى الفرد حاجة لا تقاوم إلى إنتاج و استهلاك ما هو زائد عن الحاجة,ويؤسسان لمعايير اختيار تدعم في النهاية مساعي التكييف والقولبة .وحين يُمنح المرء حرية الاختيار بين سادته,أو بين تشكيلة من البضائع والخدمات التي تُخلد بلادته, فإننا نكون بصدد حرية منظمة ومصطنعة تستعيد بخبث ذكريات الرق والعبودية[4] !

هذا التنديد بهيمنة النمط الاستهلاكي,والاعتراض على تسليع الوجود الإنساني وتدمير القيم التي تشكل أدوات التلاحم الاجتماعي يحيلنا على البعد الضائع والإيقاع المؤلم الذي يضبط حركة الحياة في المجتمعات الغربية .وهو المآل الذي حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الانقياد لأسبابه ,ففي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (تعس عبد الدينار و الدرهم و القطيفة و الخميصة إن أعطي رضي و إن لم يُعط لم يرض) و سر الدعاء عليه بالتعاسة مرده إلى

ما ينشأ عن الولع الزائد بالأشياء من اتباع للهوى,وانحراف عن المقصد الرباني من تسخير النعم . فمن كان عبدا لهواه ,كما قيل,لم يصدق في حقه (إياك نعبد) !

إن الوسطية التي تحكم علاقة المسلم باللباس تمثل إحدى تجليات التكريم الرباني للإنسان. وسطية قائمة على حصر وظائفه في ستر العورة وإظهار أثر نعمة الله عليه دون تفريط يزري بالمظهر أو إفراط يُولد الكبر.وهذا التكريم القائم على مبدأي الاستخلاف و التسخير يجعل من كل عناصر الكون خادمة للوجود الإنساني حتى يتفرغ ابن آدم لأسمى تكليف وهو عبادة الخالق وعمارة الأرض. فحري بمن حظي بهذه المكانة ألا يخلد إلى هواه و يعطل منهجا ربانيا ضمن له التوازن و الطمأنينة و الكيان النفسي الموحد .

المصادر

1 – جان ميزونوف وماريلو شفايتزر : الجسد و الجمال .شركة الخدمات التعليمية . القاهرة 2006 . ص 109

2 – أجنر فوج : الانتخاب الثقافي . المجلس الأعلى للثقافة . القاهرة 2005 . ص281

3 – إيريك فروم : الإنسان المستلب و آفاق تحرره . نداكوم للطباعة و النشر . الرباط 2003

4 – هربارت ماركوز : الإنسان ذو البعد الواحد. دار الآداب . بيروت 1988 . ص 43 وما بعدها .

رجوع للفهرس

عولمة التخنث

يبدو أن لا حد للعلمنة في سعيها الحثيث لتدمير الجهاز المناعي للأمة الإسلامية , و شل قدرتها على النهوض و البناء . ولعل من أخطر تجليات هذا السعي هو الإصرار الغريب على تجفيف منابع الرجولة , والزج بالشباب المسلم في متاهة التخنث المدعوم بترسانة إعلامية و دعائية غير مسبوقة . فلم يعد الأمر وقفا على زي فاضح أو تسريحة شعر منفرة , بل تطور إلى المناداة بانتزاع إقرار اجتماعي بحرية تحطيم الذكورة , و تحميلها وزر تردي العلاقات الإنسانية !

يورد ابن منظور في "لسان العرب" تعريفا للمخنث يحيل على الضعف و الرخاوة :

- تخنث الرجل أي سقط من الضعف , و الخَنِث هو المسترخي المتثني , أما الخنثى فالذي لا يخلص لذكر و لا أنثى . و في الحديث الشريف عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لعن النبي صلى الله عليه وسلم المخنثين من الرجال , والمترجلات من النساء, وقال:أخرجوهم من بيوتكم [1]. أما الفقهاء فقد خصوا باللعنة كل من يُظهر الميل إلى التشبه بالنساء في حديثه و هيئته لغرض آثم يُشيع الفاحشة . فاستثنوا بذلك المخنث بالخِلقة , وهو الذي يغلب عليه اللين في كلامه و التكسر في خلقته دون أن يكون مراده الإتيان بفعل فاحش .

وقد فطن ابن خلدون في مقدمته الشهيرة إلى أحد أهم دواعي التخنث و تلاشي مقومات الرجولة في أمة من الأمم , من خلال حديثه عن ولع

المغلوب بالاقتداء بالغالب في زيه ونحلته وسائرعاداته . حيث عزاه إلى كون النفس تعتقد الكمال فيمن غلبها و انقادت إليه , لذلك ترى المغلوب يتشبه أبدا بالغالب في ملبسه ومركبه و سلاحه في اتخاذها و أشكالها , بل وفي سائر أحواله [2]. وهو ما تنبه إليه في وقت سابق الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه , رغم أن كفة المسلمين هي الراجحة آنذاك ! فكتب إلى بعض عماله العرب ببلاد العجم " إياكم و التنعم بزي العجم , و عليكم بالشمس فإنها حمام العرب , وتمعددوا و اخشوشنوا و اخشوشبوا و اخلولقوا , و أعطوا الركب أسنتها , وانزوا نزوا و ارموا الأغراض " [3].

لم تكن بلاد المسلمين سوقا رائجة للتخنث كما هي عليه اليوم . حيث توزعت ردود الفعل بين النفي و الإبعاد بموجب قرار رسمي يصدره الخليفة أو الوالي , و بين السخرية و التندر ممن تنازلوا طوعا عن رجولتهم , حتى أنشد أحدهم قائلا :

وما عجبي أن النساء ترجلت و لكن تأنيث الرجال عجيب

بيد أن ما يحدث اليوم يُحيل بشكل مؤلم على أسوء آثار الهزيمة النفسية, ممثلا في الإذعان لحتميات زائفة رسخها الإعلام الغربي في عقول النشء مفادها : أن لا سبيل لردم الفجوة الحضارية إلا باعتماده مرجعا على مستوى القيم والتصورات و السلوك ,حتى في أشدها انحلالا و تفسخا . لذا لا نستغرب حرص ترسانته الإعلامية و الدعائية على التسويق لصورة الإنسان "الحداثي" كما يرتضيها : إنسان يُسخر حريته التي هي أعظم

القيم , لخدمة أغراض سفلية كالعري و التخنث و تحطيم الأطر المنظمة للوجود الإنساني .

في سياق جرده لآليات علمنة الإنسان من الداخل يرصد الدكتور عبد الوهاب المسيري أمثلة عديدة لما أسميناه عولمة التخنث . ولعل أخطرها هو إعادة تعريف الإنسان في ضوء رغباته الاقتصادية و الجسدية . فهو كائن متحد بالسلعة , باحث أزلي عن المتعة و المنفعة , لا يكتسب هويته من انتمائه الوطني أو مواقفه الأخلاقية و إنما من نمطه الاستهلاكي.

وهو إنسان صيغت له أحلام ورغبات لا تمت بصلة لعالمه الداخلي ,فاستبطنها دون أية مقاومة تُذكر ليصبح شخصية نمطية يسهل التنبؤ بسلوكها , كما يسهل توظيفها في قطاع اللذة المدر لربح وفير !

بل إن التعبير عن العلمنة سيبلغ مداه على مستوى اللباس من خلال ما يُسمى ب"أزياء الجنس الواحد" , والتي تقوم على مبدأ تحييد الجنس تماما بحيث يرتدي النساء و الرجال زيا واحدا ! (4)

إن ما تصبو إليه عولمة التخنث هو التطبيع مع الفوضى الجنسية , و استبعاد ما هو أخلاقي من دائرة العلاقات الإنسانية . ولعل المتتبع لنوعية القضايا و الملفات التي تتبناها موجة الحقوق و الحريات الجديدة , يدرك البعد التدميري الذي اكتسبه مفهوم الحرية الشخصية , و كيف أن هذه

الأخيرة باتت أكثر التصاقا بالتمرد على الإطار الديني و القيمي الموجه للسلوك الإنساني .

وإذا كان التاريخ يشهد بوثوق الصلة بين تفتيت العلاقات الإنسانية و أفول الأمم , فإن الواجب يقتضي استنهاض الهمم , وصيانة مقومات الرجولة في أمة البعث و الشهود الحضاري.

المصادر

(1) : رواه البخاري

(2) : عبد الرحمن بن خلدون : المقدمة ج1 . تحقيق عبد السلام الشدادي . الدارالبيضاء. 2005. ص 242

(3) : رواه البغوي عن أبي عثمان النهدي

(4) : د.عبد الوهاب المسيري : العلمانية الجزئية و الشاملة ج2 . دار الشروق .2002 . ص 135 و 155

رجوع للفهرس

فضيلة التثبت

روى ابن حبان البستي في "روضة العقلاء" أن رجلا سعى بالليث بن سعد رحمه الله , و بذل وسعه لتأليب والي مصر عليه . فدعاه هذا الأخير , فلما دخل الليث قال له : يا أبا الحارث ,إن هذا أبلغني عنك كذا وكذا . فرد الليث قائلا : سله ,أصلح الله الأمير, عما أبلغك ,أهو شيء ائتمناه عليه فخاننا فيه , فما ينبغي لك أن تقبل من خائن.أو شيء كذب علينا فيه فما ينبغي لك أن تقبل من كاذب. فقال الوالي : صدقت يا أبا الحارث !.

و لعل في مسرح الحياة العامة ألوفا من أمثال هذا الرجل , تتطاير ألسنتهم شررا في كل اتجاه , لزعزعة وضع مستقر ,أو لتبديد ثقة زيد في عمرو . لكن ما يحز في النفس أحيانا ألا يكون السواد الأعظم من الناس في مثل تحرز هذا الوالي عن إلحاق الأذى قبل التثبت .

إن كل مسلم يقرأ القرآن ويتدبر ما بين دفتيه من أوامر ونواهي و عظات , لا بد أن يستوقفه الحض الإلهي على التثبت , وتقييم حامل النبأ من حيث الاستقامة و العدالة . فمن جملة القواعد القرآنية التي نص الحق سبحانه على إدراجها ضمن منهج تربية الجماعة المسلمة : قاعدة " فتبينوا" . ومعلوم أن كثيرا من النفوس جُبلت على التسرع و سوء الظن , لذا يكفيها سماع الخبر لتشرع في تفتيت الوحدة , و تشتيت الصفوف , و تدمير البنيان

وكعادة القرآن في تنويع أساليب التربية , تطالعنا سورة النمل بخبر التثبت السليماني في قصة الهدهد . إذ لما أطلع نبيَ الله سليمان على المعتقد السائد في مملكة سبأ ,و أظهر اعتداده بما أحرزه من سبق إعلامي قائلا: "

أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين " جاء الرد السليماني ممتثلا لقاعدة التثبت " سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين" !

و في السيرة النبوية وقائع عديدة أبدى فيها النبي صلى الله عليه وسلم حرصا شديدا على تبين الخبر بوضوح , ومراجعة الواقعة بحذافيرها مع ناقلها قبل أن يفصل في الأمر.

لما وقع شجار بين مهاجري و أنصاري وهما يسقيان من البئر يوم بني المصطلق , استنجد كل منهما بقبيلته , فكادت تحدث فتنة عظيمة بين مهاجري قريش من جهة , و أنصار الأوس و الخزرج من جهة ثانية , لولا أن قام رجل في الصلح و هدأت النفوس. لكن عبد الله بن أبيّ المنافق أبى إلا أن يوغر الصدور فصرح قائلا : و الله ما رأيت كاليوم مذلة , و الله إن كنت لكارها لوجهي هذا , و لكن قومي قد غلبوني . قد فعلوها وقد نافرونا و كاثرونا في بلادنا , و أنكروا منتنا , والله ما صرنا و جلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك .. و الله لئن رجعنا المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ".

كان زيد بن الأرقم حاضرا , وهو آنذاك غلام حديث السن , فحدث النبي صلى الله عليه وسلم بما سمعه , فتغير وجهه ثم قال : يا غلام , لعلك غضبت عليه ؟

قال : لا والله لقد سمعت منه .

قال : لعله أخطأ سمعك ؟

قال : لا يا نبي الله .

قال : فلعله شُبه عليك ؟

قال : لا والله , لقد سمعت منه يا رسول الله .

و شاع الخبر في المعسكر فأسرع ابن أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يُنكر المقولة , و يحلف بالله ما قال شيئا . لكن سرعان ما نزل الوحي مصدقا حديث زيد , و كاشفا نفاق ابن أبي و أتباعه في سورة "المنافقون" .

في معرض تحليله لهذه الواقعة , يؤكد الدكتور منير الغضبان أن النبي صلى الله عليه وسلم احتكم لقاعدة التثبت بوضعه لثلاثة احتمالات قبل أن يتبنى الخبر و يبني عليه !

الاحتمال الأول : أن يكون ناقل الخبر مغرضا أو صاحب هوى (لعلك غضبت عليه ؟ قال لا والله لقد سمعت منه) فرغم أن الأمر يتعلق برأس النفاق إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم أحب التأكد من أن الناقل ليس له غرض أو مصلحة أو هوى ضد المنقول عنه .

الاحتمال الثاني : أن يكون ناقل الخبر غير دقيق في نقله (لعله أخطأ سمعك) فلا يبعد أن يكون النقل خاطئا , فيؤدي إلى زيادة أو نقصان في الكلام يغير المعنى كله .. و بالتالي يُتهم بشيء لا أصل له , أو زيد عليه فغير معناه .

الاحتمال الثالث : أن يكون الفهم خاطئا للكلام (فلعله شُبه عليك) وهذا أكثر الاحتمالات وقوعا في الصف المسلم أن يُفهم الكلام على غير قصده أو غير معناه , و بالتالي تتأزم الأمور لسوء تفاهم أو سوء فهم من طرف واحد , ثم تُبنى الأحكام كلها على ضوء هذا الفهم السيء , ويتصدع الصف نتيجة أوهام لا حقائق . (1)

إن ما يروج اليوم في المعترك الإعلامي و السياسي العربي من افتراء و تلفيق و تأويل فاسد للمواقف و التصريحات , يفرض على المسلم استحضارا دائما لقاعدة التثبت و التروي في ردود أفعاله . فالعديد من المنابر الإعلامية و هيآت المجتمع المدني التي قررت الاندراج ضمن خط النفاق العام , تبذل قصارى جهدها لإفشال أي مسعى للإصلاح أو حركة للتغيير. لذا فإن حُراس الربيع العربي مُطالبون اليوم بمزيد من التثبت و ضبط النفس, و ترجيح كفة المصلحة في التحقيق و الإدانة !

بقول ابن الجوزي رحمه الله " ما اعتمد أحد أمرا إذا هم بشيء مثل التثبت , فإنه متى عمل بواقعة من غير تأمل للعواقب كان الغالب عليه الندم . وقد قيل : خمير الرأي خير من فطيره , وأشد الناس تفريطا من عمل مبادرة في واقعة من غير تثبت و لا استشارة "(2)

فتثبتوا .. يرحمكم الله !

المصادر -

---

(1) د.منيرمحمد الغضبان: المنهج الحركي للسيرة النبوية . مكتبة المنار . الأردن 1990. ص 266 -267 بتصرف

(2) أبو الفرج بن الجوزي : صيد الخاطر . دار الكتب العلمية. بيروت 1992. ص 379

رجوع للفهرس

نعم .. فقدنا الرضا

إن طاحونة الاستهلاك التي ألقي فيها المسلم المعاصر طوعا أوكرها أفقدته الإحساس بالرضا , وأرخت على وجوده ستارا من الهواجس و التوقعات المخيبة للآمال . فقلما يفلت اليوم أحد من هوس التملك , و الذعر المتواصل الذي تخلفه الإعلانات المبثوثة في كل زاوية و ركن . لهاث مستعر لتأثيث الحياة بمئات , وربما آلاف المنتجات و السلع التي تتجدد في كل لحظة . وأوهام تمزج السعادة بالتبضع , و ترى في القناعة ضربا من الخبل أو العجز عن مسايرة الركب . وما أسوأه من ركب !

لقد فقدنا الرضا ..

نعم , لذا يضج واقعنا اليومي بحوادث ووقائع تفجأ السمع و تدمي القلب عمن قرروا وضع حد لحياتهم , أو حياة الآخرين, للفرار من جحيم الخرق الذي يزداد اتساعا كل يوم بين هوس التملك وضيق ذات اليد ! ولم يعد للأخلاق سموها المعتاد على المادة , فالنزوات و الأهواء هي ما يحدث الفارق بين وضع اجتماعي و آخر . كلما أطلقت العنان لرغباتك المجنونة صرت أقرب للنموذج الإنساني الذي يرتضيه دهاقنة الإنتاج و الإعلام . أما القيم الأصيلة ودعوات الشرائع السماوية للاعتدال وصون دائرة الروح من العبث , فهي في عرف السادة الجدد مخطوطات تحظى بالتبجيل و التوقير , و تصان في المتاحف خلف زجاج سميك لا يحجب الرؤية , لكنه , للأسف الشديد , يمنع التجاوب و التمثل الصادق الملهم !

لقد فقدنا الرضا ..

نعم , لذا أصبح الخوف من الغد و تقلبات الزمان وقودا يغذي سعينا اليومي للكسب , ويضفي على علاقاتنا و أنماط تفاعلنا داخل المجتمع سمة النفعية المقيتة التي انسحبت أمام ضراوتها قيم الإيثار و نكران الذات ورعاية النبل الإنساني .

****

سُئل يحيى بن معاذ : متى يطيب عيش المؤمن ؟ قال : إذا رضي عن الله تعالى بكل ما قضى و قدر و حكم و دبر . فالرضا هنا ثمرة وقوف العبد على مراد الله تعالى من البلاء و مر القضاء , وهو مقام لا يبلغه المؤمن إلا حين يصدق في محبته لله , و التسليم لمشيئته فيما لا يدرك العقل كنهه ومغزاه . يقول أبو حامد الغزالي " إذا ثبت تصور الحب لله تعالى , و استغراق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب , ويكون ذلك من وجهين : أحدهما أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس وتصيبه جراحة و لا يدرك ألمها .وأما الوجه الثاني فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به , بل راغبا فيه مريدا له بعقله وإن كان كارها بطبعه" [1] ولعل مما تضيق به صدور الخلق اليوم ما ينشأ عن حيرة العقل أمام قسمة الأرزاق , والافتتان بما يتقلب فيه كثير من أهل الباطل من رغد العيش وبحبوحته . وهي حيرة يغذيها الجهل بحكمة الخالق المبثوثة في ثنايا الإنعام الدنيوي , و التي تتراوح بين التفضل و الاستدراج .

والرضا ثمرة يقين المؤمن بأن قضاء الله تعالى له خير من قضائه لنفسه , فيُحكم زمامها حتى لا تثير نوازع السخط و التذمر , أو تستحث صاحبها على الانسلاخ من الطاعة . و لابن القيم في هذا الباب معنى لطيف إذ يقول " أول معصية عُصي الله بها في هذا العالم إنما نشأت من عدم الرضا , فإبليس لم يرض بحكم الله الذي حكم به كونا , من تفضيل آدم وتكريمه , و لا بحكمه الديني من أمره بالسجود لآدم . و آدم لم يرض بما أبيح له من الجنة , حتى ضم إليه الأكل من شجرة الحمى . ثم ترتبت معاصي الذرية على عدم الصبر و عدم الرضا " [2] .

وحين تتشرب النفس معاني الرضا يستوي لدى صاحبها إقبال الدنيا و إدبارها , و يلهج اللسان بحقيقة التوكل التي يسكن معها القلب و يرتاح من عبادة الأسباب . فإن مما يُورث اليوم مظاهر الحزن و الهم مخالفة أفعال الناس لمنطوقهم , وادعاؤهم الوقوف على حقيقة الرضا و التوكل و المحبة بينما تضج أوصالهم بالشكوى , وتذهل عقولهم عند ورود بلاء يُذهب عنهم الرجس أو يرفع الدرجات . ومما رُوي عن شقيق بن إبراهيم رحمه الله أنه قال : وافقني الناس في أربعة أشياء قولا و خالفوني فيها فعلا , قالوا : إنا عبيد لله تعالى و يعملون عمل الأحرار . و قالوا : إن الله كفيل لأرزاقنا و لا تطمئن قلوبهم إلا مع شيء من الدنيا . و قالوا : إن الآخرة خير من الدنيا وهم يجمعون المال للدنيا و الذنوب للآخرة . وقالوا : لا بد لنا من الموت وهم يعملون عمل أقوام لا يموتون "

إن أسوأ ما يلحق العبد أن يُحرم الرضا , فيمسي و يصبح شاكيا متبرما مما قدر الله له من رزق ,أو ما امتحنه به من بلاء . فإنه سبحانه طمأن القلوب في محكم تنزيله برزقه الموصول و رحمته الواسعة . وحسب المؤمن كدا و انشغالا دخوله تحت قوله تعالى (رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه)سورة البينة , الآية 8

المصادر

1- أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ج 4 . مؤسسة كرياطة فوترا . أندونيسيا د.ت. ص 337

2- ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين ج 1 . مؤسسة المختار للنشر و التوزيع .القاهرة 2001 . ص 600

رجوع للفهرس

فوضى الحريات

للأستاذ محمد قطب قراءة رصينة للسياق الذي تندرج فيه المطالبة بالحريات الفردية في العالم الإسلامي. وهو سياق يبعث على الاستغراب والشك أيضا ! يقول في كتابه : "منهج التربية الإسلامية " إن هذه الجاهلية , لغاية في نفس يعقوب , تطلق الحرية الشخصية للإنسان ابتداء من فترة المراهقة ثم خاصة في فترة الشباب لتحطم بها مقدسات البشرية كلها من عقيدة و أخلاق , بينما هي تضيق كل التضييق على هذه الحرية الشخصية في المجال الذي كان ينبغي أن تطلق فيه ! فالدين و الأخلاق و التقاليد الاجتماعية و الزواج و الأسرة ..كل هذه نهب مباح للحرية الشخصية تقتحمها اقتحاما وتلتهمها التهاما و لا تذر فيها شيئا قائما على أصوله .أما حين تمس مصالح الرأسمالية في الغرب , أو تمس مصالح الحزب الشيوعي الحاكم, أو اللجنة التنفيذية العليا , أو الزعيم المقدس في الشرق , فهنا تخرس الألسنة المدافعة عن الحرية الشخصية أو تُخرس , وتتسارع الأنظمة و التشريعات و أجهزة السلطة في تأديب المعتدي الأثيم الذي سولت له نفسه ما سولت ,وقد لا ترضى في تأديبه أقل من الإعدام ,ويقال عندئذ أنه اعتدى على الصالح العام ! " (1)

إن الإنسان بطبعه يسعى لتحقيق أكبر قدر من الحرية ,والانتفاع به في تأكيد ذاته و إشباع ميوله ورغباته. وإذا كانت الأديان و الشرائع تحرص على تهذيب هذا السعي , و الحر ءؤنك0للبول دون بلوغه رتبة الفوضى , فإن ما تضج به النفس من شر وفجور يدفع , تحت مسميات شتى آخرها الحداثة و

القيم الكونية , صوب إلغاء المنهج الرباني , و الالتفاف على منظومة الأخلاق بما يسمح للهوى أن يكون سيدا, ومرجعا في توجيه السلوك الفردي !

وفي ظل مايعيشه العالم الإسلامي اليوم من تحديات مرتبطة بالتنمية والتقدم ومواجهة آثار العولمة , يُصبح مطلب تعزيز الحريات الفردية أساسيا لإنضاج الشروط الكفيلة برفع هذه التحديات . فالحرية هي العنصر التأسيسي للمبادرة الفردية و الفعالية الاجتماعية,وبدونها تفقد كل دعاوى التغيير و التحديث روحها و جدواها.غير أن المتتبع لما يروج في المشهد الإعلامي و الحقوقي من مطالب وتوصيات لا يُمكنه التسليم بأن الدفاع عن الحريات الفردية يروم فعلا دعم خطط التنمية وتحقيق النهوض الحضاري !

في الآونة الأخيرة شهد المغرب جدلا حادا بشأن مناداة بعض الجمعيات الحقوقية و المنابر الإعلامية بإلغاء الفصل 490 من القانون الجنائي المغربي الذي ينص على معاقبة كل رجل و امرأة تم ضبطهما يُمارسان علاقة غير شرعية. أما المبرر الذي يسوقونه فمرتبط بالقيود التي يفرضها القانون على الحريات الفردية , وبعدم تبعية هذه الأخيرة لأية قوة خارجية سوى إرادة الفرد وقراره الذاتي !. وإذاكان وزير العدل المغربي قد اعترض على هذا المطلب , لكونه فسادا يهدم مباديء النظام العام و يتنافى مع هوية المغرب الإسلامية ,فإن الحدث أعاد للواجهة مسألة الحريات الفردية في العالم الإسلامي , وكذا السياق المغرض الذي تندرج تحته !

أول ما يلفت الانتباه في هذه المقاربة الفجة لمدلول الحرية الفردية هو عجزها عن تبين الفروق الواضحة بين القانون و المنظومة الأخلاقية للمجتمع. فالأخلاق هي المسؤولة عن اجتذاب الإنسان للقيم و المثل العليا التي يجب أن يتناسق سلوكه معها ,أما القوانين فلا تعدو وظيفتها الحفاظ على الحد الأدنى من الأخلاق الذي يصون كيان المجتمع.

ثانيا أن الإقرار بورود النقص في الفعل البشري يقتضي خضوعه لسلطة عليا توجهه و تحول دون انسياقه خلف رؤى وأوهام مضللة . وميزة الإسلام أن التوجيه الرباني فيه يرتقي بالفطرة الإنسانية ويُعودها الإنصات لنداء القيم . بينما دعاة الحرية الفردية الشوهاء , وإن كانوا يُقرون بالنقص البشري, إلا أنهم يدفعون صوب تحرير الإرادة من أي توجيه حتى لو كان ربانيا , وأن يكون الفعل البشري محصلة للقرار الذاتي حتى لو أطاح بكل المُثل ! فحرية التصرف بالجسد تبيح , برأيهم, اللواط و السحاق و الإجهاض وسائر تعبيرات الدرك الأسفل من الحيوانية .

ثالثا أن الاندفاع المجنون في الغرب لإقرار الحريات الفردية هو وليد ثورته على نظام كهنوتي مغلق , وكنيسة استعبدت النفوس وحجرت على الفكر قرونا عديدة . إلا أنها كانت ثورة عمياء لم تتبين الحدود الحقة بين بشارة المسيح و تلفيقات المجامع الكنسية !..بل الأسوأ من ذلك أن الغرب يُمارس الحجر و العسف الذي اكتوى به على غيره من الأمم حين يفرض نموذجه التنموي ومعاييره الاجتماعية والفكرية.

فدعاة الحريات الفردية غير الملجمة بدين أو تشريع إنما هم في الحقيقة أوصياء على الفوضى القادمة, لذا فخيار التوعية الدينية و التربوية الحقة هو خيار مصيري ينبغي النهوض به على الوجه الأكمل لترسيخ التصور الإسلامي للحرية .

إن مجابهة صور التخلف و الاستبداد التي يرزح تحتها المجتمع الإسلامي تقتضي تعزيز الحرية كحافز للتغيير الاقتصادي و الاجتماعي . فالمسلم المعاصر بحاجة لممارسة حريته السياسية و الفكرية و المدنية بما يؤهله للعطاء و الانتاج والنهوض بواجب الاستخلاف .لكن المنطق الأعمى الذي يحكم هؤلاء لا يروم خدمة هذه الأغراض تحديدا , فجل مسعاهم هو إثبات ولائهم لمنظومة غربية مفككة , و تأكيد إيمانهم بأن تحرر الفرد من كل ضابط شرعي و أخلاقي هو السبيل الأمثل لبلوغ الرقي و التجديد الحضاري .

المصادر

---

(1) الأستاذ محمد قطب.منهج التربية الاسلامية .ج2 . دار الشروق ط2 1992. ص 289

رجوع للفهرس

التبسم .. زاد دعوي

لا يسلم التصدي للدعوة إلى الله , و حمل الناس على الرجوع إلى جادة الحق من آثار جانبية و عوارض غير محمودة تفضي أحيانا كثيرة إلى عكس المرجو منها ! ذلك أن فلسفة التغيير الإسلامي تقتضي نبل الوسيلة و الغاية معا , و استحضار البعد الإنساني للرسالة .غير أن التدافع الحاصل بين الحق و تجليات الباطل المتعددة , يحمل بعض العاملين في حقل الدعوة , بل وكل مسلم غيور , على المبالغة في إظهار الحزم و الشدة , مما يمس جانب الرفق و اللين في تبليغ الدعوة ,و ترشيد أنماط التدين المغلوطة .

ومما أوصى به النبي صلى الله عليه و سلم في هذا الباب , ألا يقف المسلم في التصدق و فعل الخير عند عتبة "المادي" , بل يتجاوزه إلى " المعنوي" الذي يمثل لُحمة العلاقة بالآخر و سداها . فجاء في الحديث الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه : " تبسمك في وجه أخيك صدقة" , وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه " إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم , فليسعهم منكم بسط الوجه و حسن الخلق" . قد يبدو هذا الفعل هينا إذا قورنت كلفته بأعمال البر الأخرى التي تتطلب بذل المال أو الجهد , لكن الحقيقة أنه أمر شاق خصوصا على النفس التي لم تتعود الخير . يقول الأستاذ محمد قطب : إن تبسمك في وجه أخيك , الذي يبدو لك هينا حتى ما يصح أن يوضع في الصدقات , لهو أشق على النفس التي لم تتعود الخير ولم تتجه إليه. هناك ناس لا يبتسمون أبدا , ولا تنفرج أساريرهم وهم يلقون غيرهم من الناس . إنهم شريرون أو في نفوسهم مرض , وينابيع الخير

مغلقة في نفوسهم و عليها الأقفال [1] . أما الزعم بأن التجهم و العبوس و تقطيب الجبين ضرورة يفرضها الحزم والحرص على الوقار الداخلي , فهو زعم لا ينهض , ولا يتكيء على دليل شرعي . فقد كان هديه صلى الله عليه وسلم هو البشاشة و التبسم , و لقيا الناس بالبشرى و الاستبشار. وكان في ضحكه ومزاحه ودعابته وسطا بين من جف خلقه و يبس طبعه و تجهم محياه و عبس وجهه , وبين من أكثر من الضحك , و استهتر في المزاح , وأدمن الدعابة والخفة [2] .

وكما أن في البسمة تأليفا للقلوب , و استحضارا لقيم المودة و الإخاء الإنساني , فإنها كذلك زاد دعوي يُهيء النفوس لتمثل حقائق الإسلام , و يُعين على تقريب الأفهام لمراد الله ورسوله. ورُب سامع لكلام الحق يُعرض عنه لعبوس أو غلظة من لدن الداعي , فإذا ألقت عليه البسمةُ رداء الإيناس نشطت روحه , وانشرح صدره , و أذعن للحق راضيا. وهو ما فطن إليه سلف هذه الأمة مبكرا في تشديدهم على لزوم جانب اللين و البشاشة , و التماس أرق العبارات و ألطف الأساليب .

يقول الإمام أبو حاتم البستي : البشاشة إدام العلماء , و سجية الحكماء , لأن البشر يُطفيء نار المعاندة, و يحرق هيجان المباغضة , وفيه تحصين من الباغي , ومنجاة من الساعي , ومن بش للناس وجها لم يكن عندهم بدون الباذل لهم ما يملك - لذا – لا يجب على العاقل إذا رُزق السلوك في ميدان طاعة من الطاعات , إذا رأى من قصر في سلوك قصده , أن يُعبس

عليه بعمله ووجهه , بل يُظهر البشر و البشاشة له , فلعله في سابق علم الله أن يرجع إلى صحة الأوبة إلى قصده عما يجب عليه من الحمد لله , و الشكر له على ما وفقه لخدمته و حرم غيره مثله [3] .

أما الماوردي فيستهل حديثه عن المزاح بذم الإفراط فيه , وحث العقلاء على اجتنابه , إلا في إحدى حالتين " إحداهما إيناس المصاحبين و التودد إلى المخالطين وهذا يكون بما أنس من جميل القول و بسط من مستحسن الفعل.. و الحالة الثانية أن ينفي بالمزاح ما طرأ عليه من سأم و أحدث به من هم " [4] .

إن التوجيه النبوي الذي يأمر بالتبشير و ينهى عن التنفير هو الإطار العام الذي ينبغي أن يتحرك داخله كل من انتسب لصف الدعاة و العاملين للإسلام . فواقع الحياة الإنسانية اليوم حافل بالهموم و المنغصات التي أفقدت المسلم المعاصر زمام نفسه , و ألقت به في متاهة اليأس و الكآبة و الارتياب . لذا فمن مقتضيات التيسير الذي حث الشارع الحكيم على لزومه و الأخذ به , أن يجنح الخطاب الدعوي إلى الرفق و التلطف , و بث الأمل و الإيجابية في النفوس حتى تسترد حيويتها و فاعليتها . و تتفجر فيها ينابيع الخير و الطموح إلى آفاق أرحب .

إن التبسم هبة الله التي تؤلف القلوب , و المفتاح الذي تلين له مغالق النفوس . وهي المدخل اليوم لاستعادة قيم وجدانية كادت أن تندثر تحت وطأة اللهاث خلف المادة , و السعي للإشباع و الابتلاع .

فجربها !

جرب أن تلقى الناس بوجه طلق وعلى فمك ابتسامة مشرقة . و لن تندم على التجربة قط !

إنها لتستطيع - وحدها – أن تفتح مغالق النفوس , وتنفذ إلى الأعماق . تنفذ إلى القلب! إلى الطاقة المكنونة في الكيان البشري . فتربط بينها و بينك برباط الجاذبية .

حينئذ تصير قطعة من الكون الأعظم . دائرة معه في فلكه الفسيح . لأنك تلتقي بفطرتك الصحيحة مع فطرته الحقة . فتلتقيان في الناموس الكبير .

وحينئذ ترى الله ! فهذا هو الطريق ! (5)

المصادر

(1) محمد قطب : قبسات من الرسول . دارالشروق . 2003 . ص 115

(2) د.عائض القرني : محمد - صلى الله عليه وسلم - كأنك تراه . دار ابن حزم . 2002 . ص 97

(3) أبو حاتم البستي : روضة العقلاء و نزهة الفضلاء . مكتبة نزار مصطفى الباز. 2006 . ص 122

(4) أبو الحسن الماوردي : أدب الدنيا و الدين . دار اقرأ . بيروت 1985 . ص 319

(5) محمد قطب : مرجع سابق . ص 122

رجوع للفهرس

أكلما اشتهيتم ..اشتريتم ؟

ورد في بعض كتب الحديث[1] أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى في يد جابر بن عبد الله رضي الله عنهما درهما .فلما علم أنه يريد شراء لحم لأهله لأنهم اشتهوه , ترك لمن يأتي بعده قولته البليغة : أكلما اشتهيتم اشتريتم ؟ ما يريد أحدكم أن يطوي بطنه لابن عمه وجاره ؟ أين تذهب عنكم هذه الآية : " أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا و استمتعتم بها " ؟ - سورة الأحقاف 19 -.وفي رواية أخرى[2] أن جابرا قال : تمنيت لو أن الدرهم سقط من يدي ولم ألق عمر !

هذه الحادثة تحيل على ما هو أعمق من مجرد الدعوة إلى ترشيد الاستهلاك , إذ هي في حقيقتها استحضار للبعد الإنساني في الإنفاق حتى لو تعلق الأمر بقطعة لحم ! وموقف عمر رضي الله عنه إنما هو امتداد للهدي النبوي الشريف في نهيه عن السرف ومجاوزة الحد في التنعم , فقد روي عن فاطمة الزهراء رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : شرار أمتي الذين غُذوا بالنعيم , الذين يأكلون ألوان الطعام , ويلبسون ألوان الثياب , ويتشدقون في الكلام " [3].

إن الأمة الإسلامية اليوم تعيش ما يصفه جان ماري بيلت ب" دُوار الاستهلاك", تلك الرغبة المحمومة في الامتلاك و الاستمتاع و الحصول على كل شيء , وعلى الفور ! وأصبح التميز و التفوق يُقاس بما يستهلكه الفرد من سلع ووسائل الحضارة لا بما ينتجه , وبتنا نتابع كل يوم معركة إشباع لا تقل ضراوة عن معارك الحديد و الدم !

كان للتبعية أثرها الواضح في تحويل المجتمع المسلم إلى أسواق رائجة لبضائع الغرب , والزج به في نسق حضاري يقوم على الأنانية و المنفعة المادية و شهوة التملك , لكن الأدهى من كل ذلك أن الجبهة المتواطئة في الداخل تمادت في الحفز على الاستهلاك من خلال السيطرة على المؤسستين التربوية و الإعلامية ,وسعيها لفصل السلوك الاقتصادي عن منظومة القيم الدينية , ليصبح الاستهلاك بذلك جزءا من كيان المسلم المعاصر , ومحددا أساسيا من محددات هويته و شخصيته !

أمام هذه النزعة الاستهلاكية المفرطة صار الترف عنوان الحياة المثلى , وتأشيرة الولوج إلى عالم تتحلل فيه النفوس من كل قيد اجتماعي و أخلاقي . فكان لا بد من شيوع ألوان الفساد , وتنامي دواعي القلق و الاضطراب لدى الأفراد .ولعل الراصد لمئات الحوادث التي تطالعنا في وسائل الإعلام يوميا من تزوير و اختلاس وتهريب و اتجار في الممنوع يُدرك أن مرجعها الأوحد هو السعي المحموم لبلوغ الترف !

إن موقف الإسلام واضح في ذمه للترف , وتحذيره من مغبة الإفراط في التنعم , إذ لا يليق بأمة وصفها الحق سبحانه وتعالى بالخيرية , وحملها واجب التبليغ أن تركن للدعة , وتبذل الأعمار في جلب أسباب الرغد .لذا شن القرآن حملة شعواء على المترفين , وعدهم خصوما لكل حركة إصلاح وتغيير :

فهم منشأ الانحلال الاجتماعي..

وهم وقود الدمار الذي يلحق الأمم وفق سنة إلهية تضمنها قوله تعالى " وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا " – سورة الإسراء 16 –

وهم العقبة الكأداء التي تعترض دعوات الرسل بدفاعهم عن الإلف و العادة , وتأ ليب ضعاف النفوس ضد أتباع الحق .يقول الشيخ يوسف القرضاوي في معرض تحليله لموقف المترفين من دعوة نوح عليه السلام " إنهم يريدون أن يظلوا غارقين في النعمة و المتاع الأدنى , يأكلون كما تأكل الأنعام , لا هية قلوبهم , مشغولة عقولهم . فليس لديهم فراغ لهدف كبير , و لا لمثل أعلى, و لالدعوة تقتضي منهم التعفف عن مطاوعة الشهوات , وبذل الجهد و الوقت , و الجهاد بالنفس و المال .ولهذا كان أيسر طريق عليهم التكذيب و الجحود , واتخاذ الآباء تكأة لهم فيما يزعمون " [4] .

ما السبيل إذن لتحرير المسلم من غلواء الترف ؟

وهل يستدعي الأمر مواجهة نسق حضاري بأكمله , أم لا يتطلب سوى ترميم الذات وفق التصور الإسلامي لدور الفرد ووظيفته في المجتمع ؟

الحقيقة أن الخيار الأول يبدو صعبا في ظل ما تشهده العلاقات الدولية اليوم من ارتباط عضوي بالمصالح الاقتصادية و المالية , ونجاح الدول الغربية في فرض هيمنتها على اقتصادات الدول النامية , واكتساح أسواقها , و إضعاف قدراتها الإنتاجية لتحويلها قسرا إلى مجتمعات استهلاكية .

أما الخيار الثاني فلايقل صعوبة بدوره عن الأول , لكنه منوط في شقه الأهم برغبات الأفراد لا الأنظمة .بمعنى أن بث القيم المناوئة للترف , وحمل الأفراد على تمثلها في حياتهم اليومية كفيل بوقف تيار الاستهلاك المفرط الذي يجتاح الإنسانية برمتها .

فالأسرة مدعوة في تنشئتها للطفل لتثبيت قيم العطاء المجاني , والإيثار, وتقديس الواجب , وكذلك للحد من التثمين المادي لكل سلوك يأتيه الطفل . ف" حين يصل الأمر بالطفل ألا يؤدي شيئا على الإطلاق إلا بالتحايل عليه أو إعطائه الثمن , فإنه لن يفلح في شيء في مستقبل حياته إلا أن يصطدم صدمات عنيفة تغير منه ما نشأ عليه من رخاوة و ترهل ونفعية " (5) .

و الكاتب الإسلامي مدعو بدوره لبث قيم الاعتدال و التوسط و التخفيف من حدة ولاء الفرد لمظاهر الرخاء المادي , و التحذير من مغبة انقياد الأمة لتوجيهات الرأسمال العالمي .كما أن عليه أن يتصدى بحزم لما يدعم النزعة الاستهلاكية من مقولات و شعارات تُمجد سلطان الغريزة على حساب العقل و الروح .

أما الخطاب الدعوي فملزم بجرح و تعديل التصورات الخاطئة التي يبرر بها المسلم المعاصر ركونه للدعة , و انغماسه المفرط في الملذات , كتصوره للحرية و الواجب و الكسب الدنيوي ...إلخ .ومما يُؤسف له حقا أن الإعلام الدعوي قلما يُعنى بإثارة موضوع الترف , ومخاطر التنعم الزائد على

مستقبل الأمة . فجل ما يتناوله لا يعدو الحث على أعمال البر , و دعم مشاريع التكافل الاجتماعي .

إن أخطر ما ينطوي عليه السباق نحو الترف هو نشوء أجيال رخوة مجردة من كل معاني العزة و الكرامة و المصابرة ..أجيال سرى في أوصالها الوهن فما تقوى على رفع راية أو استرداد أرض سليبة .لذا فالتحرر منه خطوة أولى لإعادة بناء الفرد و المجتمع وفق تصور إسلامي متكامل يضع الأمة مجددا على سكة العطاء الحضاري .

المصادر

---

(1): رواه الحاكم ومالك عن يحيى بن سعيد

(2): ذكره المنذري في الترغيب و الترهيب

(3): رواه البيهقي في شعب الإيمان و الطبراني في الأوسط و الكبير

(4): يوسف القرضاوي .دور القيم و الأخلاق في الاقتصاد الإسلامي.مكتبة وهيبة القاهرة .ط1 1415هـ .ص 235

(5) : محمد قطب .منهج التربية الإسلامية ج2. دار الشروق .ط 10. 1412هـ .ص141

رجوع للفهرس

رذيلة التبرم

يقف المسلم المعاصر على عتبة القناعة متأرجحا بين ما تمليه عليه الأحاديث و الآثار من حض على لزومها,و بين رياح المادية البغيضة التي تعصف باعتداله,فتزين له الإقبال اللاهث على كل لذة و متعة . و حين ترجح كفة الامتثال لهوى النفس ينشأ التبرم و الضيق من حكمة التدبير الإلهي لأمور المعاش .

إن أخطر ما مارسه الإعلام المادي على عقول المسلمين هو تفكيك قواعد مجتمع العمل و الكد مقابل الإيحاء بإمكانية تحقيق الثروة و الجاه بأيسر السبل , وهذا في الحقيقة وهم كاذب يزج بالعقول في متاهة الإعتراض على التوزيع الرباني للنعم و العطايا,كما يحشر المسلم,بل الإنسان عموما,في حلقة ضيقة يستفرغ فيها جهده و عمره.حلقة قوامها التنعم الزائد و السعي خلف الثراء بأي وجه كان !

ومما انفرد به منهج التربية القرآنية,تعويد المسلم على الرضا والتسليم ,واستحضار مشيئة الله في تصريف الأمور على نحو قلما تستوعب العقول حكمته.وبذلك يسد منافذ عديدة يلذ للشيطان أن يدلف منها ليثير الوساوس و المخاوف ! بل إن ابن الجوزي يعد إذعان العقل لما يجري به القدر, من جملة التكليف الذي أبت السماوات و الأرض و الجبال أن يحملنه.يقول رحمه الله " من ظن أن التكاليف سهلة فما عرفها . أتُرى يظن الظان أن التكاليف غسل الأعضاء برطل من الماء,أوالوقوف في محراب لأداء ركعتين ؟ هيهات ! هذا أسهل التكليف. إن التكليف هو الذي عجزت عنه الجبال,ومن

جملته : أنني إذا رأيت القدر يجري بما لا يفهمه العقل,لزمت العقل الإذعان للمقدر, فكان من أصعب التكليف . وخصوصا فيما لا يعلم العقل معناه كإيلام الأطفال و ذبح الحيوان , مع الاعتقاد بأن المقدر لذلك و الآمر به , هو أرحم الراحمين . فهذا مما يتحير العقل فيه,فيكون تكليف التسليم " [1] .

وقد عرض القرآن الكريم و السيرة النبوية لأمثلة عديدة تحيل على عاقبة التبرم , وما يلقاه الساخطون على ما ارتضاه الله و رسوله ! ففي سورتي النحل و الزخرف يرد توصيف قرآني بليغ لما يعتلج في صدر المشرك العربي حين يُرزق بأنثى :

(وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء مابُشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) النحل: 58-59

(وإذا بُشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم) الزخرف : 17

و إنه لمن المؤسف حقا أن يعج مسرح الحياة العامة بأمثال هؤلاء رغم مرور خمسة عشر قرنا على نزول القرآن . وأن تطرق مسامعنا أنباء فشل زيجات عديدة , و تدمير بيوت عامرة لا لشيء سوى أن رب الأسرة متبرم من هبة ربانية خصته بالإناث دون الذكور . بل و يُقدم بعض الآباء على الإساءة لبناتهن,وارتكاب أشنع الجرائم بحقهن .

ومن نماذج التبرم في السيرة النبوية ما أبداه ذو الخويصرة التميمي يوم قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حنين . ذلك أن الأنصبة الجزلة كانت من حظ المؤلفة قلوبهم من الأشراف و الأعراب , بينما لم ينل الأنصار ولو قليلا منها.فوقف التميمي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعطي الناس فقال : يا محمد قد رأيتُ ما صنعت اليوم . فقال رسول الله : أجل فكيف رأيت ؟ قال : لم أرك عدلت ! فغضب النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال : ويحك,إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون ؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ألا أقتله ؟ قال : لا,دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية (2)

إن الأمر هنا ليس تعبيرا عن رأي,و لا اعتراضا لينا يروم صاحبه التماس الحكمة من وراء هذا التصرف , بل هو طعن فاحش في حق سيد ولد آدم , و اجتراء لا يصدر إلا عن نفس ضجرة متبرمة , وقلب لم تستقر فيه بذرة الإيمان الحق .تأمل كيف قوبل هذا التوزيع النبوي للغنائم لدى الأنصار بنفوس راضية , لما ذكرهم الرسول صلى الله عليه وسلم بأن مقامهم أشرف من أن يكون ثوابهم "لعاعة من الدنيا" ؟!

إننا حين نستعرض ما يطرحه اللاهثون خلف الكسب الحرام , والمقبلون على شتى أنواع المعاصي من ذرائع واهية , نلمس بكل تأكيد حضورا قويا للتبرم و السخط من العدل الإلهي في تقسيم الأرزاق . بل وسعيا مضمرا أو صريحا ,لفصل الفكرة الإسلامية عن السلوك بزعم أن الزمان تغير,و لا يليق

بالمسلمين في عصر الذرة أن يخضعوا لبوصلة الحلال والحرام في تحديد توجهاتهم و اختياراتهم !

ومن صور التبرم و الضجر من البلاء ما أورده البخاري في صحيحه , من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل على أعرابي يعوده قال وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض يعوده قال: لا بأس طهور إن شاء الله فقال له: لا بأس طهور إن شاء الله قال : قلت طهور؟ كلا بل هي حمى تفور أو تثور على شيخ كبير تزيره القبور فقال النبي صلى الله عليه وسلم فنعم إذا !

فهذا مبتلى يُرشده النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يصرف عن النفس ذريعة التبرم فيأبى إلا الانقياد لها . وفرق في هذا الباب بين شكوى لله تعالى , قوامها الاستعطاف كقول أيوب عليه السلام " أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين "–الأنبياء : 83 - , وبين سخط لا يرفع عن صاحبه البلاء , بل يحرمه الأجر و الثواب.

لا شك أن التبرم آفة نفسية تحيلنا على عجز المسلم المعاصر عن مواجهة الابتلاء بقلب مطمئن إلى حكمة الله . و لكي تستعيد معاني الرضا و التسليم فاعليتها في حياته , فلا بديل له عن تجديد صلته بالمبدأ الإلهي الذي يحكم علاقته بالأشياء و الأحياء , مبدأ قوامه :

" وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم و الله يعلم و أنتم لا تعلمون " البقرة : 216 .

المصادر

(1) أبو الفرج بن الجوزي : صيد الخاطر . دار الفكرللطباعة و النشر . بيروت 2004 .ص 29

(2) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية : مختصر سيرة ابن هشام ج2. القاهرة 2000 . ص 193

رجوع للفهرس

أخلاق المسلم في عالم متغير

في عالم ينحو أكثر فأكثر نحو المادة , و سيطرة ثقافة الإشباع , وسيادة قيم الأنانية و الفردية , يبدو مطلب استعادة الأخلاق الإسلامية ضروريا , بل حيويا أكثر من ذي قبل.فالتحديات السياسية و الاقتصادية التي تواجه المجتمع الإسلامي المعاصر أفرزت قلقا وحيرة وفقدانا للبوصلة التي توجه الفكر و السلوك وجهته الصحيحة .

و إذا كانت الصحوة الإسلامية قد هيأت أرضية مناسبة لتحقيق هذا المطلب , إلا أن الحماس الزائد في فرض المناخ الإسلامي , والإدارة الخاطئة أحيانا لأشكال التدافع مع التيارات اللادينية , انحرفا بهذا المطلب عن غايته , وبتنا نشاهد مواقف و سلوكيات أقرب إلى النفاق العام منها إلى القيم الإسلامية !

إن تتبع المسار التاريخي الذي قطعه الفكر الأخلاقي منذ الحضارات الشرقية القديمة حتى العصر الحديث يُفضي بنا إلى استخلاص حقائق هامة لا يصح تجاهلها من لدن الراغبين في وصل ما انقطع , وتهييء الأمة مجددا للتخلق بأخلاق الإسلام :

الحقيقة الأولى : أنه ينبغي التمييز بين المبدأ الأخلاقي الذي يتسم بالثبات , و المظهر السلوكي الذي يتغير بتغير الزمان و المكان .فالشرف , والأمانة , و الوفاء هي مباديء ثابتة لا تتبدل , بينما تجلياتها على مستوى السلوك تتساوق مع النضج الفكري للإنسان , وتصوراته حول الكون و الحياة .فعندما تُلقي المرأة الهندية بنفسها في النار تعبيرا عن وفائها لزوجها , لا

يُمكننا أن نُدين المبدأ في حد ذاته , وإنما التعبير المروع الذي تجلى من خلاله !

إن الوعي بهذه الحقيقة يُشكل مدخلا رئيسيا لرصد ما تتسم به حركة الواقع الإعلامي العربي من سعي لردم مقومات الشخصية الثقافية الإسلامية , بدءا بتحميل الدين وزر بعض الأعراف و العادات التي انحرف فيها المظهر السلوكي عن المبدأ الأخلاقي "كجرائم الشرف" , ووصولا إلى ترسيخ القناعة بنسبية الأخلاق الإسلامية , وارتباطها بالمجتمع البدوي الذي ظهرت فيه الرسالة المحمدية ! وهو توجه لا يُمكن بأية حال أن يخدم المشروع الحضاري للأمة بل يُعمق حال التبعية و التخلف ,ويُربك توازن الفرد و المجتمع .

أما الحقيقة الثانية فتهم الفعل الإنساني في علاقته بالقواعد الأخلاقية . ذلك أن أية نقلة حضارية تشترط تغليب الاعتبار الأخلاقي على المصلحة الشخصية خصوصا إذا كان هذا الاعتبار ينهض على أساس ديني يُمجد نكران الذات,ويسمو بالنفس الإنسانية في علاقتها بالآخر .يقول الدكتور محمد عبد الله دراز" و الغاية التي يتوخاها المؤمن من نشاطه عندما يريد الوفاء بواجبه لا تستهدف طيبات الدنيا و لاسعادة الآخرة ومجدها , ولا إرضاء شعوره الخَير, بل ولإكمال ذاته الباطنية ..إن الله وحده هو الغاية فهو الذي يجب أن يكون نُصب عينيه.وكل غاية أخرى تُحرك الإنسان تعتبرنقضا للقيمة الأخلاقية " [1] . لذا فمن معاني قوله صلى الله عليه وسلم

"إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق " : السمو بالفعل الإنساني نحو مُثل عليا تتخطى حدود المنفعة و الشهرة وحب محمدة الناس !

بينما تكشف الحقيقة الثالثة دور الأخلاق , باعتبارها قوة روحية , في الحفاظ على التماسك الاجتماعي , وترجمة الإيمان إلى واقع عملي لا يقتصر أثره على الفرد بل يمتد إلى كل ما حوله من إنسان وحيوان ونبات, ولا يقف عند حدود الجماعة أو الوطن بل يتسع للإنسانية جمعاء !

وفي عصر تضخمت فيه الذات بشكل مفرط , تبدو الأخلاق البديلة عاجزة عن اكتساب ما سماه(برتراند رسل) "قوة الإرغام السيكولوجي" , لحمل النزعة الفردية على التراجع وبث أخلاق الإيثار و التضحية و المسؤولية تجاه الآخر.ويعترف " رسل" بأن مرد هذا العجز هو غياب الأساس الديني فيقول " العديد من المفاهيم الأخلاقية يصعب تفسيره , بل ويصعب تبريره إلا على أسس من افتراض وجود إله أو روح عالمي أو على الأقل هدف" كوني" ثابت.وأنا لا أقول هذه التفسيرات و التبريرات مستحيلة دون أساس ديني , ولكن أقول أنها بدون مثل هذا الأساس تفقد قدرتها على الإقناع وقوة الإرغام السيكولوجي" (2)

وإنا لنجد في السيرة النبوية تجربة رائدة لم يُسبق إليها في تاريخ البشرية لجعل المجتمع الإسلامي وحدة متماسكة , وتقوية الرابطة الأخلاقية بين أفراده , وأعني بذلك تجربة المؤاخاة بين المهاجرين و الأنصار , وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على أن يكون لقيمة المؤاخاة أثرها الإيجابي في

تغليب العنصر الإنساني المؤيد بالدين على النزعة القبلية, و الحمية الجاهلية التي كانت طاغية على النفوس ..وهذه التجربة تنهض في الواقع حجة قوية ضد دعاوى استقلال الأخلاق عن الدين. فهي منحة ربانية يعجز الجهد البشري بمفرده على تحقيقها , وهو ما يُؤكده النص القرآني في قوله تعالى " واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا" آل عمران الآية 103

أما الحقيقة الأخيرة فتتعلق بالدور الجسيم الذي تنهض به التربية في تمتين المناعة الأخلاقية للأمة , وصيانة قيمها ومبادئها , سواء تلك المتعلقة بالسلوك الفردي أو الأداء العام . والتاريخ شاهد على أن انهيار الامبراطوريات و الدول مرتبط بما هو أخلاقي أكثر من ارتباطه بالسياسي و العسكري.فبمجرد ما يتداعى البناء الأخلاقي لمجتمع ما , حتى تبدأ لحظة الأفول بالتشكل !

ولهذا يحرص أعداء الأمة اليوم , في الداخل و الخارج , على تجريد النظم التربوية في العالم الإسلامي من الباعث الأخلاقي بهدف إنشاء أجيال رخوة ومهزوزة , تتنكر لدينها وقيمها, وتنحاز لتصورات ظاهرُها الحداثة و الانفتاح , وباطنها التبعية و الانسلاخ !

إن الصيغ الوعظية لا يُمكنها أن تُحقق بمفردها ما يطمح إليه المسلم من استرداد وعيه الأخلاقي ما لم تكن مصحوبة بتطبيقات عملية , تؤهله تربويا و اجتماعيا و سياسيا للثبات أمام تسلط الحضارة الغربية , وسعيها الحثيث

للإبقاء عليه في وضع اللاهث خلفها ! وهو ما يتطلب إعدادا روحيا وفكريا يُخلصه أولا من آثار الهزيمة النفسية قبل أن يُحمله عبء النهوض بواجب الاستخلاف !

المصادر

---

(1) : د.محمد عبد الله دراز .مختصر دستور الأخلاق في القرآن.دار الدعوة .ط 1 1996. ص: 225

(2): برتراند رسل .المجتمع البشري في الأخلاق و السياسة .مكتبة الأنجلو المصرية .بدون تاريخ.ص 19

رجوع للفهرس

الدعاء.. نحو فهم متجدد

تتضافر عوامل عديدة في عالم الأسباب اليوم لتقطع صلة الإنسان بالله ,وتستحثه ليرهن فاعليته بثنائية السبب والنتيجة بمعزل عن أي تدخل مفترض للسماء.وفي مقدمة هذه العوامل: منهاج تربوي يختزل الدين في معارف شكلية لا تلامس شغاف القلب ولا تجلي صدأ السلوك, وثقافة معولمة تتنازعها ضروب الفلسفات والأفكار والآراء المتباينة حد التناقض, ثم إعلام يرد من حوض الشبهات والشهوات ويُوجه كل مقدراته لإسقاط الثوابت والرموز.وضع كهذا يفرض تجديد ثقة الواقع في النص من منطلق موضوعي يستوعب الإشكالات الراهنة لا من منظور كرنفالي موسمي !

يقف المسلم أمام المحن و المصاعب والأزمات حائرا وعاجزا, تعوزه القوة أوالمال أوإبداع الحلول,فلا يجد له ملاذا غير الدعاء, ففيه تتجدد أسمى معاني الذلة والافتقارإلى الله والدنو من حضرته وعظمته وكبريائه بغير واسطة.إن مما تفرد به الإسلام هو حرية استدعاء العبد ربه عز وجل دون الحاجة إلى كاهن أوراهب أوطقوس وشعائر تزري بكرامة الإنسان وتحط من قدره.غيرأن الاسترسال في العادة والمألوف أفقد هذه العبادة الجليلة بعضا من مقاصدها ومعانيها,وبتنا نعاين تطبيعا مؤلما مع سلوكيات ومظاهر مسيئة لمراد الشارع الحكيم من لزوم الدعاء والحض عليه.إن لهذه العبادة آدابا مشروعة و شروطا مفروضة, يقول أبوبكر الطرطوشي في (الدعاء المأثور),فمن وفى وُفي له,ومن لزم تلك السيرة على شروط الأدب أوشك نيل ما سأل,ومن أخل بالآداب استحق ثلاثة خلال : المقت والبعد والحرمان!

أول ما نلحظه في هذا الباب هو وقوف أغلب الناس على دلالة واحدة لمعنى الاستجابة في قوله تعالى (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) -غافر 60- وهي تلبية المطلب, رغم أن السنة الشريفة حددت صيغا متعددة للاستجابة تتراوح بين تعجيل العطاء أوادخاره في الآخرة أورفع ما يماثله من البلاء. وقصر معاني الاستجابة على مدلول واحد قد يوهن عزيمة المسلم في الإلحاح و تكرار المسألة, بل قد يفضي به إلى التحلل من شروط وآداب الدعاء كإخلاص النية وإظهار التضرع والمسكنة فتصبح الأدعية جملا مكرورة تجري على اللسان دون فهم لفحواها.لذا يستدعي الأمر وقوفا على بعض هذي المعاني الواردة في تصانيف أئمة العلم من مفسرين ومحدثين.

للإمام الحافظ أبي سليمان الخطابي,أحد أئمة وأعلام القرن الرابع الهجري, تصنيف فريد في بابه يجيب عن تساؤلات عديدة في أمرالدعاء والقضاء,ويفسر فيه ما أشكل من ألفاظ الأدعية النبوية التي جمعها الإمام ابن خزيمة.في هذا التصنيف المعنون ب(شأن الدعاء) يكشف الخطابي معاني الاستجابة قائلا " إنما يُستجاب من الدعاء ما وافق القضاء.ومعلوم أنه لا تظهر لكل داع استجابة دعائه, فعلمت أنه إنما جاء في نوع خاص منه بصفة معلومة.وقد قيل:معنى الاستجابة أن الداعي يُعوض من دعائه عوضا ما, فربما كان ذلك إسعافا بطلبته التي دعا لها,وذلك إذا وافق القضاء, فإن لم يساعده القضاء فإنه يُعطى سكينة في نفسه, وانشراحا في صدره, وصبرا يسهل معه احتمال ثقل الواردات عليه.وعلى كل حال فلا يعدم فائدة دعائه

وهو نوع من الاستجابة ".وقد يكون تأخير الاستجابة خيرا للداعي من التعجيل لأن الله تعالى أعلم بمصالح عباده,فإذا لم ير المرء أثرا للإجابة فليصحح التوبة من ذنوبه ,وليدع ولا يمل من الدعاء,فربما تجلت المصلحة,برأي ابن الجوزي في (صيد الخاطر),في تأخير الإجابة,وربما لم تكن المصلحة في الإجابة,فأنت تثاب وتجاب إلى منافعك.ومن منافعك أن لا تُعطى ما طلبت بل تُعوض غيره! أما وسوسة الشيطان في هذا الموقف فيصرفها اليقين بحصول المطلوب من الدعاء وهو التعبد والتذلل.

ومن الظواهر المؤلمة التي تنحرف بالدعاء عن مقصده الأسنى ما نعاينه اليوم في بعض الولائم وجل المآتم من إقبال متزايد على الدعاء "المؤدى عنه ", فيتلو القاريء آيات من القرآن وأدعية فيها من تكلف السجع وصنعة الكلام ما أفتى السلف بكراهته لقاء مبلغ من المال, وكلما زاد المبلغ حظي الميت أو المريض أو صاحب الحاجة بقائمة من الأدعية المنتقاة سجعا وتطريبا.أما التساؤل عن شرعية هذا السلوك فيرده أهل هذه الصنعة باستدلال خاطيء أوقياس باطل !

إن المضطر والمظلوم وصاحب الحاجة أولى من غيره بالدعاء لتفريج كربه وقضاء حاجته,وذلك لما يقتضيه الدعاء من إخلاص نية وتضرع وإظهار للمسكنة مما لا يمكن لغيره اصطناعه.ذُكر أن العابدة الصالحة رابعة العدوية خرجت إلى المقبرة فاستقبلها رجل قائلا: ادعي لي,فقالت: يرحمك الله, أطع الله وادعه, فإنه يجيب المضطر إذا دعاه.وقد يُلتمس الدعاء عند من يُرجى

صفاء سريرته,كما كان دأب عمربن الخطاب رضي الله عنه حين يأخذ بيد الصبي فيجيء به فيقول: أدع لي, فإنك لم تذنب بعد!

ويخصص الإمام يوسف بن عبد الهادي المتوفى عام909هـ في مصنفه الشهير (أدب المرتعى في علم الدعا) فصلا خاصا بمن يُستجاب دعاؤهم سدا لذريعة التعلق بفئة مخصوصة.يقول رحمه الله " والذين يستجاب دعاؤهم هم المضطر,والمظلوم قيل: ولوكان فاجرا أو كافرا,والوالد, والإمام العادل,والرجل الصائم, والولد البار لوالديه,والمسافر,والصائم حين يفطر,والمسلم لأخيه بظهر الغيب,والمسلم مالم يدع بظلم أوقطيعة رحم,ولكل مسلم في كل يوم وليلة دعوة مستجابة".

وتحت ضغط المادة وثقل أعباء الحياة يلجأ المسلم إلى ربه طلبا لتيسيرأمرالمعاش,وتوفير أسباب الحياة الكريمة التي تقيه حرج سؤال الغير,أوالوقوع في الشبهات واقتراف المعاصي.وهذا أمر لاغبار عليه, فالرسول صلى الله عليه وسلم يحض أمته,في الحديث المروي عن أنس بن مالك, أن يسألوا الله حاجتهم كلها, حتى شسع النعل إذا انقطع.واستجاب الرعيل الأول لهذا التوجيه المحمود فكان منهم من يرفع كفيه إلى المولى سبحانه سائلا ملح العجين أوعلف الشاة ! لكن المسلم مأمور كذلك بالوقوف عند حد الاعتدال بين صلاح الدنيا وصلاح الآخرة ,فلا يصرف كل همه في الدعاء لالتماس فضول العيش.وكعادة السلف في إنصاتهم لنبض المجتمع, وحرصهم على رتق كل فجوة تلوح بين النص والواقع فإن مصنفاتهم لم

تخل من إشارة لهذه الثلمة في فحوى الدعاء.يقول الإمام ابن القيم في (الفوائد)" العجب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له,ولايتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض, وشفائه من داء الشهوات والشبهات, ولكن إذا مات القلب لم يشعر بمعصيته." نفس الاعتراض يبديه الإمام ابن الجوزي في (صيد الخاطر) محتجا لاستحواذ المراد على الزلة." ثم العجب من سؤالاتك, فإنك لا تكاد تسأل مهما من الدنيا, بل فضول العيش.ولاتسأل صلاح القلب والدين مثلما تسأل صلاح الدنيا. فاعقل أمرك فإنك من الانبساط والغفلة على شفا جرف, وليكن حزنك على زلاتك شاغلا لك عن مراداتك".

إن التلازم بين العبودية والدعاء يفرض تخليصه من الآفات التي تلحقه جراء وسوسة أواتباع للهوى أو انحراف في فهم المقصد.وكون التواصل بين العبد وربه قائما دون وسيط لا يعني البتة أن يتحرر المسلم من آداب الدعاء وشروطه, أو يتصرف بسوء أدب في المقام الذي يرتجي فيه جلب الرحمة ودفع النقمة. لقد أفاض السلف في عرض نماذج من الاعتداء في الدعاء وتجاوز الحد الشرعي.ولعل الخطاب الديني اليوم في مسيس الحاجة إلى الوقوف الرصين على جذور المشكلة للحؤول دون استمرارية الوضع المفارق بين النص .. والواقع !

رجوع للفهرس

جبريون ورب الكعبة !

لا يكاد يخلو التداول اليومي بشأن الهموم و المشاكل والبلايا من إساءة للقضاء و القدركركن من أركان الإيمان,وجزء حيوي من عقيدة المسلم.وقلما يفطن شاك ومتبرم من علة أوبلوى أنه يهدم ركنا جليلا من عقيدته حين ينسب ما ألم به لقدر الله السابق ,وماكتبه على الخلائق قبل الخلق,نافيا مسؤوليته عن صدور الخطأ من جهته,وتحمله وزرما اقترفت يداه!

هذا الإحياء للجبرية المقيتة والخلط الزائف بين القدر وتبعات الحرية الإنسانية في التصرف والفعل ,يفرض اليوم مراجعة حثيثة لسلوك المسلم المعاصر كي يُحدد منشأ هذا الوهم وأسبابه, ويبذل الفقهاء والدعاة وسعهم للتحذير من مزالقه و تبعاته على العقيدة والسلوك.وإذا كان السلف قد بذل جهدا محمودا في رد هذه الفرية التي سيج بها الأمويون حكمهم, وبرروا جورهم, فلا محيد اليوم عن جهد مثيل أو مضاعف لتنقية الفكرة الإسلامية مما لحقها من سوء فهم.

روى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : جاء سراقة بن مالك فقال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خُلقنا الآن.ففيم العمل اليوم ؟ أفيم جفت به الأقلام وجرت به المقادير,أم فيما يُستقبل؟ قال : لا, بل فيما جفت به الأقلام,وجرت به المقادير.قال: ففيم العمل؟فقال:اعملوا فكل ميسر.هذا الهدي النبوي يرشد الأمة إلى سبب من أهم أسباب تحصيل السعادة وهوالتحرر من وهم التعارض بين وجوب الإيمان بالقدر مع الإتيان

بالأسباب التي توصل المسلم إلى الخيرات و تُجنبه الشرور.وهذا من أعظم ما تعلمته الأمة وتميزت به, فبإقرار الأمرين معا, يقول الأستاذ محمد قطب, يتوازن القلب في مسيرته على هذه الأرض, فلا يزايله الإحساس الدائم بقدرالله والتطلع إليه في الكبيرة والصغيرة,ولا يزايله كذلك مراقبته لأعمال نفسه ووزنها بميزان الخطأ والصواب(مفاهيم ينبغي أن تصحح.1994.ص261).وقد ساعدت بعض أحداث السيرة النبوية ووقائعها على إنضاج هذا التوازن في نفوس الجماعة المسلمة,حتى يستقر في وعي المسلم أن إيمانه بالقضاء والقدرلا ينفي مسؤوليته عن الخطأ و التقصير.

كان درس أحد مؤلما حين خالف الرماة الأمر النبوي بلزوم مواقعهم ,وشغلهم حظهم من الغنائم عن تبين حيوية موقعهم في إدارة المعركة,فانقلبت الموازين وحدث الاضطراب في صفوف الجيش.ولما تردد على الألسنة سؤال:أنى هذا؟ جاء الرد الإلهي حاسما " قل هو من عند أنفسكم.إن الله على كل شيء قدير.ومأأصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله,وليعلم المؤمنين,وليعلم الذين نافقوا"(آل عمران 165-167).صحيح أنه بإذن الله,لكن أقداره لا تحابي المقصروالمخطيء,لأن له سبحانه سننا جارية في الكون تُلزم الأخذ بالأسباب المؤدية إلى النتائج.

وحين تجلى في حنين اعتداد مفرط بالأسباب وترددت في الصفوف مقالة:"لن نُغلب اليوم من قلة", بوغت المسلمون بخطة مالك بن عوف زعيم هوازن,فاضطرب الصف قبل أن يستعيد الرسول صلى الله عليه وسلم

زمام المبادرة لترجح كفة المسلمين.ونزلت الآيات محذرة من الفصل بين الأسباب وموجبات التوفيق الإلهي"ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت,ثم وليتم مدبرين"(التوبة.25)

استقر في النفوس هذا التوازن فتحقق الإيمان على بصيرة, ولم يعد قدر الله السابق حائلا دون التطلع إلى قدر جديد كما عبر عن ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه في طاعون عمواس,حين رد على أبي عبيدة قائلا: نفر من قدرالله إلى قدر الله! أما اليوم فإن لوثة الإفرنج سرت في الفكر والوجدان والسلوك,واجتهدت في نقض أسس العقيدة الصلبة هدما وتشكيكا,حتى علا في الأمة صوت من يدعو للتخلص منها إسوة بالغرب الذي نبذ الخرافات والأساطير,وأعاد النظر في صلته بالسماء!

تشرب العقل المسلم عبر التربية الحديثة والثقافة والإعلام مقولات التحدي والصراع التي ورثها الغرب عن الفكر اليوناني الغابر.وضجت مئات,بل آلاف رسوم الأطفال والأعمال التلفزية والسينمائية برسائل تمتدح دون مواربة نموذج الإنسان الفائق الذي يتحدى الأقدار وينازع الإله سلطته في تدبير الخلق والأمر.وكان لهذه المقولات المشفرة حينا والصريحة أحيانا كثيرة آثارها على تفاعل المسلم مع صور البلاء وتبرير تواكله السلبي.لن يتسع المجال هنا لعرض آليات التضليل و الخداع التي ينهض عليها الخطاب الإعلامي المعاصر,وما يخلفه التوظيف الخبيث لتنقيات التواصل من تلاعب

بالعقول, لكننا سنكتفي بتناول نماذج للرسائل المشفرة التي تهدم عقيدة القضاء و القدروتشوه حقيقتها في وعي الصغار والكبار على السواء.

لا تزال رسائل العنف و صوره هي الأكثر استحواذا على مضامين رسوم الأطفال المتحركة وألعاب الفيديو,رغم الكم الهائل من الدراسات والأبحاث التي رصدت مخاطره وحذرت من تبعاته على سلوك الطفل وعلاقاته الاجتماعية.ولعل من أخطر هذه الصورعلى البناء العقدي للطفل تلك التي حررت صراع الخيروالشرمن امتداده الأفقي (حيوانات مخيفة,عصابات,إنسان آلي..) لتجعله صراعا عموديا مع القوى الكونية التي تستوطن السماء, ومواجهة بين بطل أرضي تتوفرلديه كل مقومات الجرأة والقوة والمغامرة ,وبين شرور وأخطار قادمة من الفضاء.هذه المشاهد التي تبدو للراشد تسلية من وحي الخيال هي في نظر الصغير وقائع تتكدس ببطء في مخيلته,وتتلاعب بإدراكاته الحسية لتعيد صياغة تصوره وموقفه من السماء,أو بشكل أكثر تحديدا وإن بدامراوغا: من الله !

إن أخطر ما في هذه الرسائل على المستوى العقدي هو ربط الوجود الإنساني بالتحدي المستمر لقوة مجهولة تصر على الحؤول دون توسيع هامش حريته وانفراده بتقرير مصيره وتحديد معالم مستقبله,وبالتالي يصبح الشر جولة خسرها البطل,والخير ضربة قاضية أنهى بها النزال .ويزداد الأمر سوءا حين تنكشف عيوبنا التربوية في بسط وتقريب الحقائق الدينية للصغار! أما على مستوى الراشدين فإن كثيرا من المنتجات الدرامية تراهن

بدورها من خلال الأساطير والخيال الجامح على زعزعة الثقة في القضاء والقدر,وتصنيفه ضمن عوائق الفكروالإرادة خاصة في الجماعات الإنسانية المهمشة.

وتدفع حتى بعض البرامج التلفزية في هذا الاتجاه,خاصة تلك التي تعنى بقضايا الجريمة والبؤس الاجتماعي,إذ لا تخلو الرسائل المبطنة من تكريس للجبرية في تبرير الفساد والظلم والتفاوت الفلكي بين فئات المجتمع ,وعلى إيقاع معزوفة حزينة يُروج للتعايش مع الواقع المر والقبول بصور البر والإحسان كحل وحيد, في تنصل واضح من تحميل المسؤولية لحراس الأوضاع الهشة و المائلة. أما حين يُفتح ملف الإجرام على مصراعيه, فإننا نتابع بحسرة كيف تتم الاستعانة بتوليفات من علم النفس والاجتماع للتخفيف من وقع الجريمة,و ترويض المجتمع للقبول بالوضع الشاذ والتطبيع مع انحرافات خلقية تغذي العنف.فلا يملك المشاهد أو القاريء سوى التعاطف مع مجرم هو بدوره ضحية لإله الشرالذي يملك زمامه,تماما كما يحدث لعرائس الدمى حين يشد اللاعب الخيط!

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه: المحاور الخمسة للقرآن الكريم" كل ميل بعقيدة القدر إلى الجبر تخريب متعمد لدين الله ودنيا الناس, وقد رأيت بعض النقلة والكاتبين يهونون من الإرادة البشرية,ومن أثرها في حاضرالمرء ومستقبله,وكأنهم يقولون للناس: أنتم محكومون بعلم سابق لا فكاك منه,ومسوقون إلى مصيرلادخل لكم فيه,فاجهدوا جهدكم, فلن تخرجوا

عن الخط المرسوم لكم مهما بذلتم.إن هذا الكلام الرديء,ليس نضح قراءة واعية لكتاب ربنا,ولا اقتداء دقيق بسنة نبينا,إنه تخليط جنينا منه المر! "

رجوع للفهرس

و أحسنوا

ينفرد الإسلام في بنائه القيمي بالحرص على تحقيق الانسجام التام بين الإنسان وباقي عناصر الكون. فالموجودات,وإن كانت خادمة للحياة الإنسانية ومسخرة لتأثيث فضائها بكل لوازم الإعمار والاستخلاف, إلا أن النص القرآني يحث على تهذيب السلوك إزاءها,واعتماد الوسطية و التوازن في الانتفاع بها و تسخيرها.وحين نستعرض الآيات القرآنية و الأحاديث النبوية التي تحصي وجوه الإحسان وتثني على الساعين لبلوغ منزلته,فإننا نقف على الخيط الناظم لعلاقة الإنسان بالآخر,سواء كان هذا "الآخر" بشرا أو حيوانا أوحتى جمادا !هذا الخيط الناظم هو الحب والرفق و الأداء المصحوب بالمشاعرالإنسانية الدافئة .

إن الإنسان جزء من منظومة التسبيح الكوني لله و إفراده بالعبودية ,يقول تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)الإسراء الآية 44.غير أنه لا يتذوق حلاوة الاندراج في هذه المنظومة إلا حين يكون الحب هو بوصلته الهادية في علاقته بسائر المخلوقات حتى الحجارة الصماء. ولنا في دلائل نبوة المصطفى صلى الله عليه وسلم ومعجزاته ما يحيل على نبل الآصرة التي يجدربالمسلم أن يعقدها مع من حوله..وما حوله ! فقد كان بمكة حجر يسلم عليه,فحمل الرسول الأكرم ذكراه في قلبه وحدث أصحابه يوماعن تعلق الحجر به (إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث)- حديث صحيح رواه مسلم- يقول محمد الصوياني تعليقا على هذا الحديث " إن للكون الصامت حولنا من التراتيل والصلوات بقدرما نشهده

من صمت وسكون..لكن الكون يريد قلبا..يريد عقلا ليكشف ذلك المعبد فيه.وهب الله ذلك الحجر لغة الإنسان فكلم محمدا..أم وهب محمدا إدراكا ليفهم لغة الحجر, فكان ذلك السلام..وكان ذلك الحب الذي بدأ بين محمد ومكة " [1].هذا الحب يستشعره المسلم في الكم الهائل من التوجيهات العملية التي حض النبي صلى الله عليه وسلم على مراعاتها في تسخيرالكائنات لخدمة الوجود الإنساني.وهي توجيهات ووصايا جسدها المسلمون في واقعهم العملي محتكمين إلى منظومة فقهية بلغت في تفصيل الأحكام مبلغا لم يُسبق إليه. ويكفي أن يطالع المرء بعض ما ورد في كتاب النفقات من مصنفات الفقه ليقف على تفصيل عجيب لما يلزم المسلم من الرعاية والنفقة نحو الكلاب والطير والنبات وغيرها.إنه تفصيل لاتحركه المنفعة المادية أو المصلحة الاجتماعية بقدرما يتصل بدافع أخلاقي محض قوامه رفع الضرروالظلم والأذى عن كل ذي كبد رطبة [2].

في قوله تعالى (وأحسن كما أحسن الله إليك) القصص الآية 77 يبرز الإحسان كأرفع حلية للإنسان المتدين.فالمبالغة في العطاء و الإتقان في الأداء لا يصدران إلاعن نفس تاقت لمبادلة العطاء الرباني بالشكر,واستجابت لداعي الإنفاق طوعا على الغير,سواء كان بالمال أو إجادة العمل أو حتى إراحة الشاة عند الذبح ! والمتأمل في آيات و أحاديث الإحسان يقف على أنواع شتى من القربات و الأعمال التي لو تحركت الهمم صوبها ,وعمل الناس بها لعم الأمن و الخيروالسكينة.فالمعاملة الحسنة

وخفض الجناح للوالدين إحسان (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما و قل لهما قولا كريما.واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا)الإسراء الآيتان 23-24

و الصبر إحسان (واصبر فإن الله لا يضيع أجرالمحسنين) هود الآية 115

و العفووالصفح إحسان (فاعف عنهم و اصفح إن الله يحب المحسنين) المائدة الآية 14

و الاتباع الصادق لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم إحسان (والذي جاء بالصدق و صدق به أولئك هم المتقون.لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين)الزمر الآيتان 32-33

و جهاد النفس والمال إحسان (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) العنكبوت الآية 69

و سد حاجة القريب والجاروالسائل والمحروم إحسان (واعبدوا الله و لا تشركوا به شيئا و بالوالدين إحسانا و بذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب و الصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم) النساء الآية 36

و الرفق بالحيوان حتى وإن كان يُساق إلى الذبح إحسان (إن الله كتب الإحسان على كل شيء,فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة,وإذا ذبحتم فأحسنوا

الذبحة,وليحد أحدكم شفرته,وليرح ذبيحته)رواه مسلم من حديث أبي يعلى شداد بن أوس

بل وتتسع دائرة الإحسان لتشمل كل قربة أو طاعة ترتقي بالعبد من إسلام الجوارح وإيمان القلب إلى الاستشعار الدائم لحضورالله ومراقبته إياه ,فيبلغ المقام الذي عبرعنه المصطفى صلى الله عليه وسلم بقوله (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)رواه مسلم من حديث طويل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وحين تصطبر النفس في سعيها لبلوغ الإحسان,وتثبت أمام جور الزمان وصنوف الابتلاء التي يمتحن الله بها عباده المؤمنين,فإن قبسة من نور الله وفيضه الغامر تضيء بين جوانحها.فلايملك من رآها وجالسها و جاذبها أطراف الحديث إلا أن يحبها. وتلك ثمرة لا يتذوقها إلا من اصطفاه الله مع المحسنين .يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله " تحس على الفور حين تلقى أحدا منهم انك أمام "إنسان".إنسان بهذا المعنى الذي كرمه خالقه وفضله على كثير ممن خلق. إنسان تأنس إليه و تستريح عنده,تستريح في تعاملك معه وفي علاقاتك.تستريح إلى الاستقامة النظيفة التي لاعوج فيها ولاالتواء. وتحبه..

لا تملك إلا أن تحبه ولو خالفك في أفكارك وأعمالك ومشاعرك واتجاهاتك. تحبه لأن فيه قبسة من نور الله ..وتحاول –إن استطعت- أن تقفو خطاه " (3)

إن آيات الإحسان في القرآن تشهد بأننا أمام تكريم للحياة الإنسانية لم يسبق إليه مذهب أخلاقي أو ديني.وأمام قاعدة عظيمة ينهض عليها الإسلام برمته.وما أعظمها بشارة تلك التي أعلنها القرآن الكريم لمن عنوا بتقويم النفوس و تجويد الأعمال .بشارة مفادها المحبة و المعية .قال تعالى (إن الله مع الذين اتقوا و الذين هم محسنون)النحل الآية 128

المصادر

1 – محمد الصوياني:السيرة النبوية كما جاءت في الأحاديث الصحيحة.مكتبة العبيكان.الرياض 2004.ص53

2 – د.يوسف القرضاوي : رعاية البيئة في شريعة الإسلام .دار الشروق.القاهرة 2001 .ص131 وما بعدها.

3 – محمد قطب : قبسات من الرسول .دار الشروق.القاهرة 2003. ص 94

رجوع للفهرس

حامل القرآن

حين يستعرض المرء ما كتبه علماء السلف حول أخلاق أهل القرآن وآداب حملته, يستشعر حرصا جليا على صيانة حدود المرتبة الرفيعة التي يحظى بها من وُصفوا في الحديث النبوي بأشراف الأمة وأهل الله وخاصته .ولعل استحضار بعض هذي الآداب يستمد اليوم وجاهته من الأثر السيء لبريق الكاميرا وسطوة الإعلام على ناشئتنا من حملة القرآن .

روى ابن قتيبة في (عيون الأخبار)عن الحسن قال" قراء القرآن ثلاثة : رجل اتخذه بضاعة ينقله من مصر إلى مصر يطلب به ما عند الناس,وقوم حفظوا حروفه وضيعوا حدوده,واستدروا به الولاة واستطالوا به على أهل بلادهم ,وقد كثر الله هذا الضرب في حملة القرآن لا كثرهم الله ! ورجل قرأ القرآن فبدأ بما يعلم من دواء القرآن فوضعه على داء قلبه,فسهر ليله وهملت عيناه, تسربلوا الخشوع, وارتدوا الحزن ,وركدوا في محاريبهم,وجثوا في برانسهم, فبهم يسقي الله الغيث, وينزل النصر,ويرفع البلاء.والله لهذا الضرب في حملة القرآن أقل من الكبريت الأحمر".ولا شك أن هذا التوصيف ينطبق اليوم على واقعنا المعاصرونحن نعاين تشكل جيل أقل تأدبا مع القرآن..جيل لا يعنيه من رسائل ربه غير الأداء النغمي وحشد المعجبين !

شكل الهدي النبوي منطلقا لما يمكن أن نسميه بأخلاقيات حامل القرآن,والتي تتوزع حسب الحديث الشريف وأقوال الصحابة بين آداب تعلمه وتلاوته,وبين ما ينبغي على حامله لزومه من سلوك وأخلاق في علاقته

بالمجتمع.فمن آداب تعلمه ما رواه ابن ماجة في سننه وصححه الألباني من حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ونحن فتيان حزاورة – و الحزور من قوي واشتد وقارب البلوغ – فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن, ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيمانا.

ومنها إخلاص التلاوة و العمل به لله تعالى,فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"تعلموا القرآن وسلوا الله به قبل أن يتعلمه قوم يسألون به الدنيا, فإن القرآن يتعلمه ثلاثة نفر: رجل يباهي به, ورجل يستأكل به, ورجل يقرأه لله" ولا يتحقق الإخلاص إلا بتطهير القلب من متعلقات الدنيا ودنس الأهواء.

ومنها لزوم الخشوع و التدبرعند الشروع في تلاوته حتى تتجاوب النفس مع دلالاته,وتتمثل مقاصده وغاياته.والأخبار في هذا الباب أظهروأشهر,فقد روى النسائي وابن ماجة من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه و سلم قام بآية يرددها حتى أصبح وهي (إن تعذبهم فإنهم عبادك)المائدة120.وعن عباد بن حمزة قال: دخلت على أسماء بنت الصديق رضي الله عنهما وهي تقرأ (فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم)الطور25,فوقفت عندها فجعلت تعيدها وتدعو, فطال علي ذلك, فذهبت إلى السوق فقضيت حاجتي ثم رجعت وهي تعيدها وتدعو.وهذا أدب لا يبلغه من كانت همته آخر السورة!

ومنها تعهده و المحافظة على تلاوته آناء الليل و أطراف النهار,والحذر من تعريضه للنسيان.روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحجزه شيء عن قراءة القرآن إلا الجنابة ".وفي صحيح البخاري و مسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" تعاهدوا هذا القرآن, فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل في عقلها ",بل إنه عد تعريض سورة أوآية للنسيان من أعظم الذنوب,روى أبو داوود في سننه من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"عُرضت علي أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد, وعُرضت علي ذنوب أمتي فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن أو آية أوتيها رجل ثم نسيها ".

أما ما ينبغي التخلق والالتزام به من قواعد السلوك إجلالا للقرآن الكريم,فإن كثيرا من مصنفات السلف أجادت في بسطه و أفادت,وحرص مؤلفوها على تضمينها من مأثورالقول والفعل ما يؤسس لأخلاقيات حامل القرآن.ويمكن أن نعقد اللواء دون شك في هذا الباب للحافظ والمحدث أبي بكر الآجري رحمه الله الذي يشكل مصنفه " أخلاق أهل القرآن" علامة فارقة في أدبيات التربية و السلوك,بل يمكن القول أن أغلب المتأخرين ممن ألفوا في هذا الباب هم عالة على منهجه وأسلوب عرضه !

يفرد الآجري الباب الرابع من كتابه لتحديد معالم الإطار الأخلاقي الذي يجدربحامل القرآن أن يتحرك داخله, وهو في الحقيقة لم يدع خلقا حسنا أو

قيمة إيجابية أو أدبا رفيعا إلا وحثه على لزومه. ويتبين لنا من خلال جملة الوصايا التي أوردها في هذا الباب إضافة إلى الصورة القاتمة التي رسمها في الباب الخامس المعنون ب (أخلاق من قرأ القرآن لا يريد به الله عز وجل) أن أخوف ما يخافه الآجري على حامل القرآن هو فساد الزمان وأهله,لذا نراه يوصي القاريء بلزوم تلاوة متحركة لكتاب الله لا يباشرها اللسان فحسب بل يمتد أثرها ليشمل سائر الجوارح " فأول ما ينبغي له أن يستعمل تقوى الله في السرو العلانية باستعمال الورع في مطعمه ومشربه وملبسه ومسكنه. بصيرا بزمانه وفساد أهله,فهو يحذرهم على دينه,مقبلا على شأنه,مهموما بإصلاح ما فسد من أمره,حافظا للسانه مميزا لكلامه.إن تكلم تكلم بعلم إذا رأى الكلام صوابا,وإذا سكت سكت بعلم إذا كان السكوت صوابا,قليل الخوض فيما لا يعنيه,يخاف من لسانه أشد مما يخاف من عدوه.يحبس لسانه كحبسه لعدوه ليأمن من شره وشرعاقبته.قليل الضحك إن مر بشيء مما يوافق الحق تبسم.يكره المزاح خوفا من اللعب,فإن مزح قال حقا. باسط الوجه,طيب الكلام,لايمدح نفسه بما فيه فكيف بما ليس فيه؟ يحذر نفسه أن تغلبه على ما تهوى مما يسخط مولاه. لايغتاب أحدا,ولا يحقر أحدا,ولايسب أحدا,ولا يشمت بمصيبة,ولا يبغي على أحد,ولا يحسده ولايسيءالظن بأحد إلا لمن يستحق,يحسد بعلم ويظن بعلم ويتكلم بما في الإنسان من عيب بعلم ويسكت عن حقيقة ما فيه بعلم.قد جعل القرآن و

السنة و الفقه دليله إلى كل خلق حسن جميل.."(أخلاق أهل القرآن.دار الكتب العلمية.بيروت2003 .ص77-78)

أما المراد من التلاوة فينبغي أن ينصرف لما هو أبلغ وآكد من ختم السورة " يتصفح القرآن ليؤدب به نفسه.لا يرضى من نفسه أن يؤدي ما فرض الله عليه بجهل,قد جعل العلم و الفقه دليله إلى كل خير,إذا درس القرآن فبحضور عقل وفهم.همته إيقاع الفهم لما ألزمه الله من اتباع ما أمر والانتهاء عما نهى.ليس همته متى أختم السورة,همته متى استغني بالله عن غيره, متى أكون من المتوكلين,متى أكون من الخاشعين,متى أكون من الصابرين,متى أكون من الصادقين,متى أكون من الخائفين,متى أكون من الراجين,متى أزهد في الدنيا,متى أرغب في الآخرة,متى أتوب من الذنوب,متى أعرف النعم المتواترة,متى أشكره عليها,متى أعقل عن الله الخطاب,متى أفقه ما أتلو,متى أغلب نفسي على ما تهوى,متى أجاهد في الله حق الجهاد, متى أحفظ لساني,متى أغض طرفي,متى أحفظ فرجي,متى أستحي من الله حق الحياء,متى أشتغل بعيبي,متى أصلح ما فسد من أمري,متى أحاسب نفسي,متى أتزود ليوم معادي, متى أكون عن الله راضيا,متى أكون بالله واثقا, متى أكون بزجر القرآن متعظا,متى أكون بذكره عن ذكر غيره مشتغلا,متى أحب ما أحب ومتى أبغض ما أبغض,متى أنصح لله ,متى أخلص في عملي,متى أقصر أملي,متى أتأهب ليوم موتي وقد غُيب عني أجلي,متى أعمر قبري,متى أفكر في الموت وشدته,متى أفكر في خلوتي مع ربي,متى

أفكر في المنقلب, متى أحذر مما حذرني منه ربي ,من نار حرها شديد وقعرها بعيد وعمقها طويل,لا يموت أهلها فيستريحوا,ولا تقال عثراتهم ولا ترحم عبراتهم.."ص 79-80.

وعلى نفس المنوال يمضي الآجري في ذم قراء الدنيا وعرض مثالبهم, فيضع حامل القرآن أمام صور منفرة لما يبديه هؤلاء من زراية بكتاب الله ,وتضييع لحدوده واتخاذه بضاعة يتأكلون به الأغنياء,ويفخرون بما عندهم من حسن الصوت أوجودة الحفظ ليبلغ صيتهم الملوك وعلية القوم ! وبذلك يستكمل الآجري منظومته التربوية التي خص بها أهل القرآن بوضعهم أمام الخلق السني وما يضاده من خلق دني.

إن سطوة الإعلام وأثره البالغ على الفكر والسلوك يفرض على دور القرآن والجمعيات الأهلية لتحفيظ كتاب الله استدعاء منظومة كهذه تأمينا للسيرعلى نهج السلف في الجمع بين الرواية والدراية,وبين العلم والعمل.ولايخفى أيضا في هذا الباب ما للقدوة من أثرعلى توجيه السلوك وتقويمه من خلال استحضار سير مشاهير القراء وشيوخ التلاوة ,ممن لم تغرهم المكانة وذيوع الصيت ,أو يثنيهم خوف من ذوي الشأن والسلطان عن إجلال القرآن.إنه لمن المؤسف حقا أن تنصرف الهمم إلى العناية بالأداء النغمي للمشاهير,وملامح الإبداع والتميز في تلاواتهم مع تقصير واضح في الاهتمام بجوانب من سلوكهم و مدى تخلقهم بأخلاق القرآن وذودهم عن حياضه,فالشخصية القرآنية ليست صوتا أو أداء فحسب,بل هي أيضا سلوك

وموقف وقيم تنهل من معين الرسائل الربانية.إن القاريء الشيخ محمد رفعت رحمه الله صوت أذهل الملايين بقوته و طلاوته,لكنه أيضا الرجل الزاهد الذي وهب حياته لخدمة القرآن وآثر شظف العيش والكفاف على متاع الدنيا وزينتها.ومن يستحضر سيرة القاريء الشيخ منصور بدار يجد نفسه أمام صوت يُعد بحق نفحة سماوية, فهو المنبع الذي نهل منه كبار القراء أمثال الشيخ مصطفى إسماعيل رحمه الله. كما يجدها أمام رجل لم يحل علو المكانة وحظوته لدى السلاطين والزعماء من التصدي لكل ما يخل بمجلس القرآن.ومن الوقائع التاريخية التي يرتبط بها اسمه توقفه عن التلاوة في مأتم الملك فؤاد عام 1936 , وحين سئل عن السبب أشار إلى وريث العرش الأمير فاروق الذي يدخن داخل السرادق,وأصر على عدم إتمام التلاوة حتى يطفيء الأمير سيجارته أو يخرج ,فأذعن الملك الجديد وكف عن التدخين! وقس على ذلك شواهد عديدة من سير المقرئين تنم عن إدراكهم لما رمى إليه الفضيل بن عياض رحمه الله بقوله : حامل القرآن حامل راية الإسلام !

إن ما يجدر بكل قاريء لكتاب الله أن يبلغه ليس هو الصوت الحسن والإلمام بأصول التلاوة و أحكامها,أواتخاذ التدبر غاية في حد ذاته,كما يقول الأستاذ محمد قطب رحمه الله ,فتلك وسائل لأمرعظيم يراد :" الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ,ثم تلين جلودهم و قلوبهم إلى ذكر الله,ذلك هدى الله يهدي به من يشاء" الزمر22, وذلك هو

الأمر العظيم المراد: أن يتحول الاستماع إلى القرآن وتلاوته والتأثر الخاشع به إلى "هدى"..إلى سلوك ملتزم بما أنزل الله في الكتاب .

ذاك هو عصب التلاوة .

وتلك هي بغية حامل القرآن !

رجوع للفهرس

هذه سلسلة مقالات سعيت من خلالها جاهداً إلى تجديد النظر في بعض أحداث السيرة النبوية ، وأحاديث الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم لتسليط الضوء على ما يرزح تحته واقعنا المعاصر من مظاهر وصور لانحراف السلوك و الفهم. إن حياة الرسول صلى الله عليه و سلم هي النموذج الأسمى لغرس القيم ، وتكوين شخصية المسلم المعاصر وتوجيه مساره الخلقي